

المكتبة الأولى للأسرة 4

مختصر عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين

تأليف

ابن قيم الجوزية

الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر

٦٩١ - ٧٥١ هـ

اختصره

أ.د. أحمد بن عثمان المزيد

أستاذ الدراسات الإسلامية - جامعة الملك سعود






رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المكتبة الأولى للأسرة ٤

مُختصر

عُدَّة الصَّابِرِين وَذخِيرة الشَّاكِرِين

تأليف

ابن قيّم الجوزية

الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر

٦٩١ - ٧٥١هـ

اختصره

أ.د. أحمد بن عثمان المزيد
أستاذ الدراسات الإسلامية . جامعة الملك سعود



مدار الوطن للنشر

الطبعة الثانية عشرة

١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م



هاتف : ٠٠٩٦٦٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط)

فاكس : ٠٠٩٦٦٤٧٢٣٩٤١

الموقع على الإنترنت :
www.madaralwatan.com

البريد الإلكتروني :
pop@madaralwatan.com



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المختصر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الأسرة هي المحضن الأساس للأفراد: تنشئةً وتربيةً ورعايةً؛ وهي في هذه المهمات الجسيمة، تواجه تحديات كثيرة وكبيرة من الخطورة بمكان، مما يستدعي تزوّدها بزاد من العلم والهدى، تهتدي به في مواجهة تلك التحديات؛ فليس من شكٍّ في أنَّ العلم يعدُّ من أهم دعائم بناء الأسرة المسلمة.

ولا شكَّ أيضًا أن علم السابقين فيه من البركة والفائدة والعمق والشمول أكثر مما في علم المتأخرين، ومن هنا جاءت فكرة هذا المجموع المبارك الذي يحتوي على ستة كتب، وهي:

أولاً: (مختصر رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين) هذا الكتاب المبارك الذي كتب الله له القبول والانتشار، فيه من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، المرتبة على أهم الموضوعات التي تحتاجها الأسرة المسلمة في عمل الدين والدنيا؛ ففيه عقائد، ورقائق، وآداب شرعية، وأحكام فقهية؛ فهو خير أنيس وجليس.

ثانيًا: (هدي محمد ﷺ) المنتقى من زاد المعاد[1] فيه ما تنشده الأسرة المسلمة من معرفة لهدي نبيها محمد ﷺ في: عباداته، ومعاملاته، وأخلاقه؛ لتهتدي بهديه، وتستن بسنته، وتقتفي أثره صلى الله عليه وسلم.

---

(١) كان للقبول الطيب والمبارك لهذا الكتاب حيث بيع منه ٨٠٠٠٠٠ نسخة وتُرجم لأهم اللغات، الأثر البالغ في حرصي على إخراج هذه الكتب في سلسلة (مكتبة الأسرة المسلمة) وبيعها بسعر مخفض دعمًا من المختصِر والطابع والناشر، وأن تكون حقوقها لكل مسلم ليسهل توزيعها في جميع أنحاء العالم.

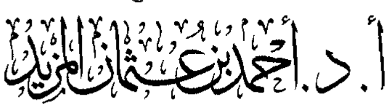
ثالثًا: (**مختصر حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**) إذا طالعته الأسرة المسلمة اشتاقت إلى نعيم الجنة، وتطلعت إلى هذا الفوز العظيم، وبهذا تقوى الإرادة والعزيمة، ويقوى الباعث في القلب للفوز بذلك النعيم المقيم.

رابعًا: (**مختصر عدة الصابرين**) مما تشتد حاجة الأسرة إليه؛ لأنها في طريقها إلى الله تعالى تتعرض لأنواعٍ من المحن والابتلاءات، من فقد عزيزٍ، أو خسارةٍ ماديةٍ، وقد تمرُّ بها كذلك أيام السعادة والفرح والمسرات، وللمؤمن موقفٌ عند الشدة وعند النعمة، وهو الصبر والشكر.

خامسًا: (**مختصر الداء والدواء**) من الأهمية بمكان؛ لأن الذنوب والمعاصي من أهم أسباب فساد الأسر وخراب البيوت، فكان من المناسب اختصاره؛ لتحذر الأسرة المسلمة من الوقوع في هذه الآفات، وتتذكر عواقبها وآثارها السيئة على الفرد والأسرة والمجتمع، بل على الأمم والشعوب.

سادسًا: (**مختصر الفوائد**) مناسبٌ لأفراد الأسرة المسلمة؛ لشغل أوقات الفراغ بما يبعث على النشاط ويدفع الملل، لما فيه من الفوائد اللطيفة، والمعاني الطريفة، وما على القارئ إلَّا أن ينتقي ما شاء منها.

وبعد... فهذه نبذة مختصرة عن هذا المجموع المبارك، نسأل الله تعالى أن ينفع به مؤلفه ومعدّه وقارئه وكل من ساهم في نشره.



أستاذ الدراسات الإسلامية
كلية التربية - جامعة الملك سعود
(dralmazyad@hotmail.com)



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمدُ لله والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ، وبعد:

فإنَّ اللهَ سبحانَهُ جعلَ الصَّبرَ جَوادًا لا يَكْبُو[1]، وصَارِمًا لا يَنْبُو[2]، وجُنْدًا غالبًا لا يُهزم، وحِصْنًا حَصِينًا لا يُهدم ولا يُثْلَم[3]، فهو والنصرُ أَخَوانِ شقيقانِ.

ولقد ضَمِنَ الوفيُّ الصادقُ لأهلِه في محكمِ الكتابِ، أَنَّهُ يُوفِّيهم أَجْرَهُم بغيرِ حسابٍ، وأخبرَهم أنه معهم بهدايتِه ونصرِه العزيزِ وفتحِه المبين؛ فقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]؛ فظفر الصابرونَ بهذهِ المعيةِ بخيرِ الدنيا والآخرةِ، وفازوا بها بنِعَمِهِ الباطنةِ والظاهرةِ.

وأخبرَ عن محبَّتِه لأهلِه وفي ذلك أعظم ترغيبٍ للراغبينَ؛ فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦].

لقد بَشَّر الصابرينَ بثلاثٍ، كلٌّ منها خيرٌ مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون؛ فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

وجعلَ الفوزَ بالجنةِ والنجاةَ من النارِ لا يَحظى به إلا الصابرونَ؛ فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون:١١١].

---

(١) لا يكبو: لا يقف كوقفة العاثر. النهاية (٤/ ١٤٦).

(٢) لا ينبو: أي لا ينقاد أو لا يجفو. انظر النهاية (٥/ ١١).

(٣) لا يثلم: لا يكسر، والثلمة الخلل في الحائط. اللسان (١٢/ ٧٩).

وأخبر تعالى أن دفعَ السيئةِ بالتي هي أحسنُ تجعلُ المسيءَ كأنَّه وليٌّ حميمٌ فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

وعلَّقَ المغفرةَ والأجرَ بالعملِ الصالحِ والصبرِ، وذلك على مَنْ يَسَّره عليه يَسِيرٌ فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود:١١].

فخير عيشٍ أدركه السعداءُ بصبرِهم، وترقَّوا إلى أعلى المنازلِ بشكرِهم، فساروا بين جناحي الصَبْر والشُّكرِ إلى جناتِ النعيمِ، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ، والله ذو الفضلِ العظيمِ.

ولما كان الإيمانُ نصفين: نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شُكرٌ، كان حقيقًا على من نَصَحَ نَفْسَه، وأحبَّ نجاتَها، وآثرَ سعادتَها: أَنْ لَا يُهْمِلَ هذين الأصلينِ العظيمينِ، ولا يَعْدِلَ عن هذينِ الطريقينِ القاصديْنِ؛ ليجعلَه الله يوم لقائِه مع خيرِ الفريقينِ.

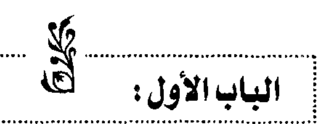
فكذلك وُضِع هذا الكتاب للتعريفِ بشدَّةِ الحاجةِ والضرورةِ إليهما، وبيانِ توقُّفِ سعادةِ الدنيا والآخرةِ عليهما؛ فجاءَ كتابًا جامعًا حاويًا نافعًا؛ فيه من الفوائدِ ما هو حقيقٌ على أن يُعَضَّ عليه بالنَّواجِذِ، وتُثنى عليه الخناصرُ، ممتعًا لقارِئه، صريحًا للناظرِ فيه، مُسليًا للحزين، منهِّضًا للمقصِّرين، مُحَرِّضًا للمشمِّرين.

فإنَّ فيه ذكرَ أقسامِ الصبرِ ووجوهِ الشكرِ وأنواعِه، وفصل النزاعِ في التفصيلِ بين الغَنِيِّ الشاكرِ والفقيرِ الصابرِ، وذكرَ حَقيقةِ الدنيا وما مثَّلَها الله ورسولُه والسلفُ الصالحِ به، والكلامَ على سرِ هذه الأمثالِ ومطابقتها لحقيقةِ الحالِ، وذكرَ مَا يُذَمُّ من الدنيا ويُحمدُ، وما يُقَرِّب منها إلى الله ويُبْعِدُ، وكيف يشقى بها من

يشقى، ويسعدُ بها من يَسعَد، وغير ذلك من الفوائدِ التي لا تكادُ تظفرُ بها في كتاب سواه.

سميته: (**عُدَّةُ الصابرينَ وذَخِيرَةُ الشاكرينَ**)، واللهُ المسؤولُ أَنْ يجعلَه خالصًا مُدْنيًا من رِضَاهُ، وأَنْ ينفعَ به مؤلِّفه وكاتِبَه وقارِئَه إنه سميعُ الدعاء وأهلُ الرجاءِ وهو حسبُنا ونعمَ الوكيل.

□ ▪ □ ▪ □



الباب الأول:

في معنى الصَّبرِ لغةً، واشتقاقِ هذه اللفظةِ وتصريفِها

أصل هذه الكلمة هو: المَنْعُ والحَبْسُ؛ فالصبرُ: حَبْسُ النَّفسِ عن الجزع، واللسانِ عن التَّشكّي، والجوارحِ عن لَطمِ الخُدودِ، وشقِّ الثِّياب، ونحوِهما.

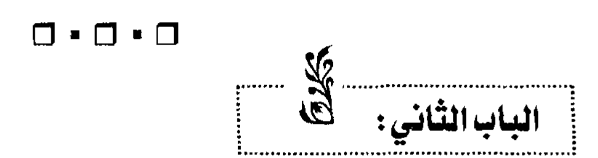
ويقال: صَبَرَ يَصْبِرُ صَبْرًا، وصَبرَ نَفْسَه؛ قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الكهف:٢٨].

ويقال: (صَبَرْتُ فلانًا) إذا حبستهُ، و(صبَّرتهُ) ـ بالتشديد ـ إذا حمّلْتُه على الصّبرِ.

ويقال: (صَبَرَ) إذا أتى بالصّبر، و(تصبَّر) إذا تكلَّفه واستدعاه، و(اصطَبَرَ) إذا اكتسَبَهُ وتَعَلَّمَهُ، و(صابر) إذا وقف خصمَه في مقامِ الصبرِ، و(صَبَّرَ) نَفْسَه وغيره بالتشديد إذا حَمَلَها على الصبر.

واسم الفاعل: صابر، وصَبَّار، وصَبُور، ومُصابر، ومصطبِر؛ فمصابر من صابر، ومصطبر من اصطبرَ، وصابر من صَبَر، وأما صبّار وصَبُورِ فمن أوزان المُبالغة من الثُّلاثي كضَرَّاب وضَروب. والله أعلم.

□ ▪ □ ▪ □



الباب الثاني:

في حقيقة الصبر وكلام الناس فيه

وأما حقيقتُه فهو: خُلُقٌ فاضلٌ من أخلاقِ النَّفسِ يُمتنعَ به مِنْ فِعْل ما لا يَحسُن ولا يَجْمُل، وهو قوّةٌ من قُوى النَّفْسِ التي بها صلاحُ شأنها، وقِوامُ أمرِها.

وسُئِلَ عنه **الجُنَيْدُ بن محمد**؛ فقال: «تَجَرُّعُ المرارةِ من غيرِ تَعبُّسٍ».

وقال **عمرو بنُ عثمان المكيُّ**: «الصبرُ: هو الثباتُ مع الله، وتلقي بلائِه بالرَّحْبِ والدِّعَةِ».

ومعنى هذا: أنه يتلقى البلاءَ بصدرٍ واسعٍ لا يتعلق بالضِّيقِ والسَّخطِ والشكوى.

والنفسُ فيها قوتان: قوَّةُ الإقدامِ، وقوَّةُ الإحجامِ، فحقيقةُ الصبرِ أن يجعلَ قوةَ الإقدامِ مصروفةً إلى ما ينفعُه، وقوةَ الإحجامِ إمساكًا عما يضُرُّه.

ومن الناسِ: من تكونُ قوةُ صبرِه على فعل ما ينتفعُ به وثباتُه عليه أقوى من صبره عما يضره؛ فيصبر على مشقة الطاعةِ ولا صبرَ له عن داعي هواه إلى ارتكابِ ما نُهِيَ عنه.

ومنهم: من تكونُ قوةُ صبرِه عن المخالفاتِ أقوى من صبرِه على مشقةِ الطاعاتِ.

ومنهم: من لا صبرَ له على هذا ولا على ذاك.

وأفضلُ الناس أصْبَرُهم على النوعين؛ فكثيرٌ من الناس يصبر على مكابدةِ قيامِ الليلِ في الحرِّ والبردِ، وعلى مشقةِ الصيام، ولا يصبرُ عن نظرةٍ مُحرمةٍ، وكثيرٌ من الناسِ يصبرُ عن النَّظرِ، وعن الالتفاتِ إلى الصور، ولا صبرَ له على الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ وجهادِ الكفارِ والمنافقينَ، بل هو أضعفُ شيءٍ عن هذا وأعجَزُه، وأكثرُهم لا صبرَ له على واحدٍ من الأمرين، وأقلُّهم أصبرُهم في الموضعين.

وقيل: «**الصبرُ: ثباتُ باعثِ العقلِ والدينِ في مقابلةِ باعثِ الهوى والشَّهوةِ**».

ومعنى هذا: أن الطبعَ يتقاضى ما يُحِبُّ، وباعث العقل والدينِ يَمْنَعُ منه، والحربُ قائمةٌ بينهما وهي سجالٌ[1]، وَمَعرَكُ هذه الحربِ قلبُ العبدِ والصَّبرُ والشجاعةُ والثَّباتُ.

□ ▪ □ ▪ □

الباب الثالث:

في بيان أسماء الصبر بالإضافة إلى متعلقه

لما كان الصبرُ المحمودُ هو: الصبرُ النفسانيُّ الاختياريُّ عن إجابةِ داعي الهوى المذموم، كانت مراتبُه وأسماؤه بحسبِ متعلقه.

□ **فإنَّه إن كان صبرًا عن شهوةِ الفرجِ المحرَّمةِ** سُمِّي عِفّةً، وضدُّها الفجورُ والزِّنَى والعُهْرُ.

□ **وإن كان عن شهوةِ البطنِ**، وعدم التسرُّعِ إلى الطعام، أو تناول ما لا يَجْمُلُ منه سُمِّي شَرَفَ نَفْسٍ وشِبَعَ نفسٍ، وسُمِّي ضِدُّه شَرَهًا ودناءةً ووضاعةَ نفسٍ.

□ **وإن كان عن فضول العيش** سُمِّيَ زهدًا وضدُّه حرصًا.

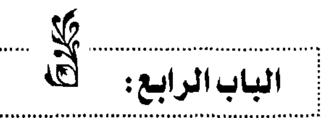
□ **وإن كان على قَدرٍ يكفي من الدنيا** سُمِّيَ قناعةً، وضِدُّها الحرص أيضًا.

□ **وإن كان عن إجابة داعي الغضب** سُمِّيَ حِلمًا، وضده تَسَرُّعًا.

فله عند كل فعلٍ وتركٍ اسمٌ يخصّه بحسب متعلّقه، والاسم الجامع لذلك كله (الصبر)، وهذا يَدُلُّك على ارتباط مقامات الدِّين كلِّها بالصبرِ من أولها إلى آخرها.

---

(١) سجال: أي مرة لهذا ومرة لذاك. انظر: النهاية (٢/ ٣٤٤).



الباب الرابع:

الفرق بين الصَّبر والتَّصَبُّر والاصطبار والمصَابرَة

الفرق بين هذه الأسماء بحسب حالِ العبد في نفسه وحالِهِ مع غيره.

□ **فإن حَبَسَ نفسه ومنعها** عن إجابة داعي ما لا يحسنُ إن كان خُلُقًا ومَلَكة سُمِّي صبرًا.

□ **وإن كان بتكلُّفٍ وَتَمَرُّنٍ وتجرُّعٍ** لمرارته سُمِّيَ تصبُّرًا؛ كما يدلُّ عليه هذا البناء لغةً، فإنه موضوعٌ للتكلُّفِ، كالتَّحَلُّمِ، والتَّشَجُّعِ، والتَّكرُّمِ، والتَّحَمُّلِ ونحوها.

□ **وأما الاصطبارُ** فهو أبلغُ من التَّصَبُّر؛ فإنه افتعالٌ للصبر بمنزلة الاكتساب، فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطبارًا.

□ **وأما المصابرةُ** فهي مقاومةُ الخَصْمِ في ميدانِ الصبرِ؛ فإنها مفاعلةٌ تستدعي وقوعها بين اثنين، كالمشاتمةِ والمضاربةِ، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، فأمرهم **بالصبر** وهو حالُ الصابرِ في نفسِه، **والمصابرةِ** وهي حالةٌ في الصبرِ مع خصمِه، والمرابطةِ وهي الثباتُ واللزومُ والإقامةُ على الصبرِ والمصابرةِ، فقد يصبرُ العبدُ ولا يصابرُ ولا يرابطُ، وقد يصبرُ ويصابرُ ويرابطُ من غيرِ تَعَبُّدٍ بالتقوى، فأخبرَ سبحانَهُ أنَّ ملاكَ ذلك كله التقوى، وأن الفلاحَ موقوفٌ عليها فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:٢٠٠]؛ فالمرابطةُ كما أنها لزومُ الثغرِ الذي يُخافُ هجومٌ منه في الظاهر؛ فهي لزوم ثغرِ القلبِ؛ لئلا يدخل منه الهوى والشيطان؛ فيزيله عن مملكته.

الباب الخامس:

في انقسامه باعتبار محلّه

الصَّبرُ ضَرْبَانِ: ضربٌ بدني، وضربٌ نفساني، وكلٌّ منهما نوعانِ: اختياريٌّ، واضطراريٌّ؛ فهذه أربعةُ أقسامٍ:

- الأول: البدنيُّ الاختياريُّ؛ كتعاطي الأعمالِ الشاقةِ على البدنِ اختيارًا وإرادةً.
- الثاني: البدنيُّ الاضطراريُّ؛ كالصبرِ على ألمِ الضربِ والمرضِ والجراحاتِ والبردِ والحرِّ وغير ذلك.
- الثالث: النفساني الاختياري؛ كصبرِ النَّفْسِ عن فعل ما لا يَحْسُنُ فعلُه شرعًا ولا عقلًا.
- الرابع: النفساني الاضطراري؛ كصبرِ النَّفْسِ عن محبوبِها قهرًا إذا حِيلَ بينها وبينَه.

فإذا عرفتَ هذه الأقسام فهي مختصةٌ بنوعِ الإنسانِ دونَ البهائمِ، ومشاركةُ البهائمِ في نوعينِ منها وهما: صبرُ البدنِ والنفسِ الاضطراريين، وقد يكون بعضها أقوى صبرًا من الإنسانِ، وإنما يتميز الإنسانُ عنها بالنوعين الاختياريين.

وكثيرٌ من الناس تكون قوةُ صبرِه في النوعِ الذي يشاركُ فيه البهائمَ، لا في النوعِ الذي يخصُّ الإنسانَ، فيعدُّ صابرًا وليس من الصابرين.

□ ▪ □ ▪ □

الباب السادس:

في أقسامه بحسب اختلاف قوته وضعفه ومقاومته لجيش الهوى وعجزه عنه

وباعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

إحداها: أن يكونَ القهرُ والغلبةُ لداعي الدين، فَيُرَدُّ جيش الهوى مفلولًا[1]، وهذا إنما يصلُ إليه بدوامِ الصبرِ، والواصلون إلى هذه الرتبةِ هم المنصورونَ في الدنيا والآخرةِ، وهم الذين قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فصلت:٣٠]، وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت:٣٠-٣١]، وهم الذين نالوا معيةَ اللهِ مع الصابرينَ، وهم الذين جاهدوا في اللهِ حقَّ جهادِه، وخصَّهُم بهدايتِه دونَ مَنْ عَدَاهُم.

الحالة الثانية: أن تكون القوةُ والغلبةُ لداعي الهوى، فيسقطَ منازِعه باعثَ الدينِ بالكليةِ، فيستسلم البائسُ للشيطانِ وجندِه فيقودونَه حيثُ شاءوا، وله معهم حالتان:

- **إحداهما:** أن يكونَ من جندِهم وأتباعِهم، وهذه حال العاجزِ الضعيفِ.
- **الثانية:** أن يصيرَ الشيطانُ من جندِه، وهذه حال الفاجرِ القوي المتسلط والمبتدعِ الداعيةِ المتبوعِ؛ كما قال قائل:

---

(١) يعني: مكسورًا مهزومًا.

وكُنْتُ امـرءًا مـن جنـدِ إبلـيس فـارتقى
بي الحالُ حتى صـارَ إبلـيسُ مـن جُنـدي

فيصير إبليسُ وجندُه من أعوانه وأتباعه، وهؤلاء الذين غلبت عليهم شِقْوَتُهم، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، وإنما صاروا إلى هذه الحالة لما أفلسوا من الصبرِ.

وأصحاب هذه الحال أنواع شتى:

- **فمنهم:** المحاربُ لله ورسوله.
- **ومنهم:** المعرضُ عما جاء به الرسولُ، المقبلُ على دنياه وشهواتِها فقط.
- **ومنهم:** المنافقُ فهو ذو الوجهين، الذي يأكلُ بالكفرِ والإسلامِ.
- **ومنهم:** الماجنُ المتلاعبُ الذي قطع أنفاسَه بالمجونِ واللهوِ واللعبِ.
- **ومنهم:** مَنْ إذا وُعِظَ قال: واشوقاه إلى التوبةِ، ولكنها قد تَعَذَّرَت عليَّ فلا مطمعَ لي فيها.
- **ومنهم:** من يقول: ليس الله محتاجًا إلى صلاتي وصيامِي، وأنا لا أنجو بعملي، والله غفورٌ رحيمٌ.
- **ومنهم** من يقول: ماذا تنفع طاعتي في جنبِ ما قد عملت، وما ينفع الغريقَ خلاصُ إصبعه وباقي بدنه غريقٌ؟!
- **ومنهم** من يقول: سوف أتوبُ، وإذا جاء الموتُ ونزلَ بساحتي تبتُ وقُبِلت توبتي.

إلى غير ذلك من أصناف المغترين.

الحالة الثالثة: في أن تكون الحربُ سِجَالًا ودُوَلًا بين الجندين، فتارة له وتارة عليه، وتكثر نوبات الانتصار وتقلّ، وهذه حال أكثرِ المؤمنينَ الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا.

وتكون الحالُ يوم القيامةِ موازنةً لهذه الأحوالِ الثلاثِ سواءً بسواءٍ.

- فَمِنَ **الناسِ** من يدخلُ الجنةَ ولا يدخلُ النارَ.
- **ومنهم** من يدخلُ النارَ ولا يدخل الجنةَ.
- **ومنهم** من يدخلُ النارَ ثم يدخلُ الجنةَ.

وهذه الأحوالُ الثلاثُ هي أحوالُ الناسِ في الصحةِ والمرضِ، فمن الناس مَنْ تقاومُ قوتُه داءَه فتقهرُه ويكون السلطانُ للقوةِ، ومنهم من يقهرُ داؤُه قوتَه ويكون السلطانُ للدَّاءِ، ومنهم مَنِ الحربُ بين دائِه وقوتِه نوبًا، فهو مترددٌ بين الصحةِ والمرضِ.

ومِنَ الناسِ من يصبرُ بجهدٍ ومشقةٍ، ومنهم من يصبرُ بأدنى حمل على النفسِ.

ومثالَ الأول: كرجل صارع رجلًا شديدًا؛ فلا يقهره إلَّا بتعبٍ ومشقةٍ.

والثاني: كمن صارعَ رجلًا ضعيفًا؛ فإنه يصرعه بغير مشقة.

فهكذا تكون المصارعةُ بين جنودِ الرحمنِ وجنودِ الشيطانِ، ومَنْ صَرعَ جُندَ الشيطانِ صَرعَ الشيطانَ.

□ ▪ □ ▪ □

الباب السابع:

بيان أقسامه باعتبار متعلقه

الصبرُ باعتبار متعلّقه ثلاثةُ أقسامٍ:

- صبرٌ على الأوامرِ والطاعاتِ حتى يؤدّيها.
- وصبرٌ عن المناهي والمخالفاتِ حتى لا يقع فيها.
- وصبرٌ على الأقدارِ والأقضيةِ حتى لا يتسخطها.



الباب الثامن:

في انقسامه باعتبار تعلُّق الأحكام الخمسة به

وهو ينقسم بهذا الاعتبار إلى واجبٍ، ومندوبٍ، ومحظورٍ، ومكروهٍ، ومباحٍ.

فالصبرُ الواجبُ ثلاثةُ أنواعٍ:

- أحدها: الصبرُ عن المحرماتِ.
- والثاني: الصبرُ على أداءِ الواجباتِ.
- والثالث: الصبرُ على المصائبِ التي لا صنع للعبدِ فيها كالأمراضِ، والفقرِ، وغيرها.

وأما الصبرُ المندوبُ، فهو:

- الصبرُ عن المكروهاتِ.

- والصبرُ على المستحباتِ.
- والصبرُ على مقابلةِ الجاني بمثلِ ما فعلَ.

وأما المحظور فأنواع:

أحدها: الصبرُ على الطعامِ والشرابِ حتى يموتَ، وكذلك الصبرُ على الميتةِ والدمِ ولحمِ الخنزيرِ عند المخمصةِ[1] حرامٌ إذا خافَ بتركِه الموتَ.

ومِنْ الصّبر المحظورِ: صبر الإنسان على ما يقصد هلاكه من سَبْعٍ أو حيَّاتٍ أو حريقٍ أو ماءٍ أو كافرٍ يريد قتله، بخلاف استسلامه وصبره في الفتنة وقتال المسلمين؛ فإنه مباح له، بل يستحب كما دلت عليه النصوص الكثيرة.

وقد سُئِل النبي ﷺ عن هذه المسألة بعينها؛ فقال: «**كُنْ خيرَ ابنَي آدم**»[2]، وفي لفظ: «**كُن عبدَ الله المقتولَ، ولا تكن عبدَ الله القاتِلَ**»[3].

وأما الصبر المكروه: فله أمثلة:

- **أحدها:** أن يصبرَ عن الطعامِ والشرابِ واللبسِ وجماعِ أهله؛ حتى يتضررَ بذلك بدنُه.
- **الثاني:** صبرُه عن جماعِ زوجتِه إذا احتاجت إلى ذلك ولم يتضرر به.
- **الثالث:** صبرُه على المكروه.
- **الرابع:** صبرُه عن فعلِ المستَحبِّ.

---

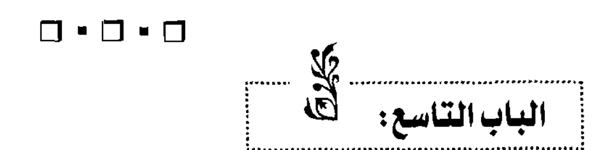
(١) المخمصة: الجوع والمجاعة. انظر النهاية (٢/ ٨٠).
(٢) أبو داود (٤٣٥٧)، والترمذي (٢٢٠٤).
(٣) المسند (٥/ ١١٠).

وأما الصبرُ المباحُ، فهو:

الصبرُ عن كلِّ فعلٍ مستوي الطرفين خُيِّرَ بين فِعْلِهِ وتركِهِ والصبرِ عليه.

وبالجملة؛ فالصَّبْرُ على الواجبِ واجبٌ، وعن الواجبِ حرامٌ، والصبرُ عن الحرامِ واجبٌ وعليه حرامٌ، والصبْرُ على المستحبِّ مستحبٌّ وعنه مكروهٌ، والصبرُ عن المكروه مستحبٌّ وعليه مكروه، والصبرُ على المباحِ مباحٌ، والله أعلم.

□ ▪ □ ▪ □



الباب التاسع:

في بيان تفاوت درجات الصبر

الصبر كما تقدم نوعان: اختياري، واضطراري.

والاختياري أكمل من الاضطراري؛ فإن الاضطراري يشترك فيه الناس، ويتَأَتَّى ممن لا يَتَأَتَّى منه الصبر الاختياري، ولذلك كان صبرُ يوسف الصِّدِّيق ﷺ عن مطاوعةِ امرأةِ العزيز، وصبره على ما ناله في ذلك من الحَبْسِ والمكروهِ أعظم من صبره على ما ناله من إخوتِه لمّا ألقوه في الجُبِّ وفرّقُوا بينه وبين أبيه، وباعوه بيع العبد.

ومن الصبر الثاني: إنشاءُ اللهِ سبحانه له ما أَنْشَأَه من العزَّةِ والرّفعةِ والمُلْكِ والتّمكينِ في الأرضِ.

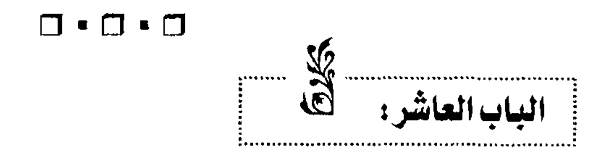
وكذلك: صبرُ الخليل ﷺ، والكَليم، وصبرُ نوح، وصبرُ المسيح، وصبرُ خاتمِ الأنبياءِ وسيِّدِ ولدِ آدم عليهم الصلاة والسلام، كان صبرًا على الدعوةِ إلى اللهِ ومجاهدةِ أعداءِ الله؛ ولهذا سمّاهم اللهُ أولي العزمِ، وأمر رسوله أن يصبر صبرهم

فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]. الذين صبروا لحكْمِه اختيارًا؛ وهذا أكملُ الصبرِ.

فإن قيل: أي أنواعِ الصبرِ الثلاثةِ أكملُ: الصبرُ على المأمورِ، أم الصبرُ على المحظورِ، أم الصبرُ على المقدورِ؟

قيل: الصبرُ المتعلّق بالتكليفِ، وهو الأمرُ والنهيُ أفضلُ من الصبرِ على مجرّدِ القدرِ؛ فإن هذا الصبر يأتي به البَرُّ والفاجرُ، والمؤمنُ والكافرُ؛ فلا بد لكل أحدٍ من الصبر على القدر اختيارًا واضطرارًا، وأما الصبرُ على الأوامرِ والنّواهي فصبرُ أتباع الرُّسلِ، وأعظمُهم اتباعًا أصبرُهم في ذلك، وكلُّ صبرٍ في محلِّه وموضعِه أفضلُ؛ فالصبرُ عن الحرامِ في محلّه أفضلُ، وعلى الطاعةِ في محلِّها أفضلُ.

□ ▪ □ ▪ □



الباب العاشر:

في انقسام الصبر إلى محمود ومذموم

الصبر ينقسم إلى قسمين: قسم مذموم، وقسم ممدوح:

فالمذموم: الصبرُ عن الله وإرادتِه ومحبتِه وسيرِ القلبِ إليه، فإن هذا الصبرَ يتضمنُ تعطيلَ كمالِ العبدِ بالكُليةِ وتقوية ما خُلِقَ له، وهذا كما أنه أقبح الصبرِ فهو أعظمه وأبلغه، فإنه لا صبرَ أبلغ من صبرِ من صَبَرَ عن محبوبه الذي لا حياةَ له بدونه اَلْبَتَّةَ، كما أنه لا زهد أبلغ من زهدِ الزاهدِ فيما أعدَّ الله لأوليائِه من كرامتِه مما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ، فالزهد في هذا أعظم أنواع الزهدِ؛ كما قال رجل لبعض الزاهدين وقد تعجب لزهده: ما رأيتُ أزهد

منك! فقال: أنت أزهد مني، أنا زهدتُ في الدنيا وهي لا بقاءَ لها ولا وفاءَ، وأنت زهدتَ في الآخرةِ فمن أزهد منا؟!

وأما الصبر المحمودُ فنوعان: صبرٌ لله وصبرٌ بالله، قال الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل:١٢٧]، وقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

وهاهنا سِرٌّ بديعٌ: وهو أن من تعلَّق بصفةٍ من صفاتِ الرَّبِّ تعالى أدخلته تلك الصفةُ عليه وأوصلتْه إليه، والرَّبُّ تعالى هو الصَّبورُ، بل لا أحدَ أصبر على أذى سمعِه مِنهُ.

والرَّبُّ تعالى يحب أسماءَه وصفاتِه، ويحبُّ مقتضى صفاتِه وظهور آثارها في العبدِ، فإنه جميلٌ يحبُّ الجمالَ، عفوٌّ يحب أهلَ العفو، كريمٌ يحبُّ أهلَ الكرم، عليمٌ يحبُّ أهلَ العلمِ، وتْرٌ يحبُّ أهل الوترِ، قويٌّ والمؤمنُ القويُّ أحبُّ إليه من المؤمنِ الضعيفِ، صبورٌ يحبُّ الصابرينَ، شكورٌ يحبُّ الشاكرينَ، وإذا كان سبحانه يحبُّ المتصفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتصافِ.

وزاد بعضُهم قسمًا ثالثًا من أقسامِ الصبرِ: وهو الصبر مع الله، وجعلوه أعلى أنواعِ الصبرِ، وقالوا: هو الوفاءُ.

واعلم أن حقيقةَ الصبرِ مع اللهِ هو ثباتُ القلبِ بالاستقامةِ معه، وهو أن لا يروغ عنه روغانَ الثعالب هاهنا وهاهنا، فحقيقةُ هذا هو الاستقامة إليه وعكوف القلبِ عليه.

وزاد بعضُهم قسمًا آخرَ من أقسامه، وسمّاه: الصبر فيه. وهذا أيضًا غير خارجٍ عن أقسامِ الصبرِ المذكورة ولا يعقل من الصبرِ فيه معنى غير الصبر له.

الباب الحادي عشر :

في الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام

كلُّ أحدٍ لا بد أن يصبرَ على بعضٍ ما يكره إما اختيارًا وإما اضطرارًا.

فالكريمُ يصبرُ اختياراً: لعلمه بحسن عاقبةِ الصبرِ، وأنه يُحمدُ عليه ويُذمُّ على الجَزَعِ، وأنه إن لم يصبر لم يَرُدّ الجزَعُ عليه فائتًا، ولم ينزع عنه مكروهًا، وأن المقدورَ لا حيلةَ في دفعِه، وما لم يُقدَّر لا حيلةَ في تحصيلِه، فالجزعُ ضَرُّهُ أقربُ من نفعِه، قال بعضُ العقلاءِ: «**العاقلُ عندَ نزولِ المصيبةِ يفعلُ ما يفعلُه الأحمقُ بعدَ شهرٍ**»؛ كما قيل:

وأن الأمـر يُفـضي إلى آخـر فيـصيرُ آخـرُه أولًا

فإذا كان آخرَ الأمرِ الصبرَ، والعبد غير محمودٍ، فما أحسن به أن يستقبل الأمرَ في أوَّلِه بما يستدبره الأحمق في آخره.

وقال بعضُ العقلاءِ: «من لم يصبر صبرَ الكرامِ سَلا سلوَ البهائِمِ».

فالكريمُ ينظرُ إلى المصيبةِ، فإن رأى الجزعَ يردُّها ويدفعُها فهذا قد ينفعه الجَزَعُ، وإن كان الجزع لا ينفعه فإنه يجعل المصيبة مصيبتين.

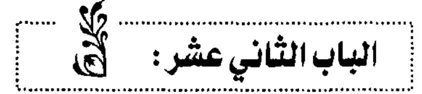
وأما اللئيمُ فإنه يصبرُ اضطراراً؛ فإنه يحوم حولَ ساحةِ الجزعِ فلا يراها تُجدي عليه شيئًا فيصبر صبر الموثق للضرب.

وأيضًا فالكريم يصبر في طاعةِ الرحمنِ، واللئيمُ يصبرُ في طاعةِ الشيطانِ؛ فاللئامُ أصبرُ الناسِ في طاعةِ أهوائِهم وشهواتِهم وأقلُّ الناسِ في طاعةِ ربِّهم.

فاللئيمُ يصبر على البَذْلِ في طاعةِ الشيطانِ أتمَّ صبرٍ، ولا يصبرُ في طاعةِ اللهِ

في أيسرِ شيءٍ، ويصبرُ على تحمُّلِ المشاقِّ لهوى نفسه في مرضاةِ عدوه، ولا يصبرُ في أدنى المشاقِّ في مرضاةِ ربِّه، ويصبرُ على ما يُقالُ في عرضِه في المعصيةِ، ولا يصبرُ على ما يُقالُ في عرضِه إذا أُوذِيَ في اللهِ، بل يَفِرُّ من الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ خشيةَ أن يُتكَلَّم في عرضِه في ذاتِ الله، ويبذل عِرْضَه في هوى نفسِه ومرضاتِها صابرًا على ما يقال فيه، وكذلك يصبرُ على التبذُّلِ بنفسِه وجاهِه في هوى نفسِه ومرادِه ولا يصبرُ على التبذُّلِ لله في مرضاته وطاعته، **فهو أصبرُ شيءٍ على التَّبذُّلِ في طاعةِ الشيطانِ ومرادِ نفسه، وأعجزُ شيءٍ عن الصبرِ على ذلك في** اللهِ، وهذا أعظم اللؤم، ولا يكون صاحبُه كريمًا عند الله، ولا يقومُ مع أهلِ الكرمِ إذا نودي بهم يومَ القيامةِ على رؤوسِ الأشهادِ، ليعلمَ أهلُ الجمعِ مَنْ أَوْلَى بالكرمِ اليوم... أين المتقون؟

□ ▪ □ ▪ □



الباب الثاني عشر:

في الأسباب التي تعين على الصبر

لما كان الصبرُ مأمورًا به جَعَلَ الله سبحانه له أسبابًا تُعينُ عليه وتوصلُ إليه، وكذلك ما أمر الله سبحانه بالأمرِ إلا أعانَ عليه ونصبَ له أسبابًا تمدُّه وتعين عليه، كما أنه ما قدَّر داءً إلا وقدَّر له دواءً وضمن الشفاءَ باستعماله.

فالصبرُ وإن كان شاقًّا كريهًا على النفوس فتحصيله ممكن، وهو يتركب من مفردين: **العلم والعمل**، فمنهما تُركّبُ جميعُ الأدويةِ التي تُدَاوى بها القلوبُ والأبدانُ، فلا بد من جزءٍ علمي وجزءٍ عملي، فمنهما يُرَكَّبُ هذا الدواء الذي هو أنفعُ الأدوية.

فأما الجزءُ العلمي: فهو إدراكُ ما في المأمورِ من الخيرِ والنفعِ واللَّذةِ والكمالِ، وإدراكُ ما في المحظورِ من الشرِّ والضرِ والنقصِ، فإذا أدرك هذين العلمين كما ينبغي أضاف إليهما العزيمة الصادقةَ والهمةَ العاليةَ والنخوةَ والمروءةَ الإنسانيةَ وضمَّ هذا الجزءَ إلى هذا الجزءِ، فمتى فعلَ ذلك حصلَ له الصبرُ وهانت عليه مشاقُّه وحَلَت له مرارتُه وانقلبَ ألمه لذةً.

فالصبرُ **«مصارعةُ باعث العقلِ والدينِ باعثَ الهوى والنفسِ»**، وكلُّ متصارعين أراد أن يتغلب أحدُهما على الآخرِ، فالطريقُ فيه تقويةُ من أرادَ أن تكونَ الغلبةُ له وتضعيف الآخر كالحالِ مع القوةِ والمرضِ سواء، فإذا قوي باعثُ شهوةِ الوقاعِ المحرَّمِ وغلبَ بحيثُ لا يملكُ معها فرجَه، أو يملكَه ولكن لا يملكُ طَرفَه، أو يملكه ولكن لا يملك قلبه، بل لا يزال يحدّثه بما هناك ويعده ويُمَنيه ويصرفه عن حقائقِ الذكرِ والتفكرِ فيما ينفعه في دنياه وآخرته.

فإذا عزم على التداوي ومقاومةِ هذا الداء فليضعفه أولاً بأمورٍ:

أحدها: **أن ينظرَ إلى مادةِ قوةِ الشهوةِ:** فيحدّها من الأغذيةِ المحركةِ للشهوةِ إما بنوعِها أو بكميتِها وكثرتِها؛ ليحسم هذه المادة بتقليلها، فإن لم تنحسم؛ فليبادر إلى الصومِ فإنه يضعفُ مجاري الشهوةِ ويكسر حدّتها، ولا سيما إذا كان أكله وقت الفطرِ معتدلًا.

والثاني: **أن يجتنبَ محركَ الطلبِ وهو النظر:** فليقصر لجامَ طرفه ما أمكنه، فإنّ داعي الإرادةِ والشهوةِ إنما يهيج بالنظرِ، والنظر يحرك القلبَ بالشهوةِ.

الثالث: تسلية النفس بالمباح المعوِّض عن الحرام: فإن كلَّ ما يشتهيه الطبع ففيما أباحه الله سبحانه غنية عنه، وهذا هو الدواء النافع في حق أكثرِ الناسِ؛ كما

أرشد النبي ﷺ.

الرابع: التفكير في المفاسد الدنيوية المتوقعة من قضاءِ هذا الوطرِ[1]: فإنه لو لم يكن جَنَّةٌ ولا نارٌ لكان في المفاسد الدنيوية ما ينهى عن إجابة هذا الداعي، ولو تكلَّفنا عدها لفاقت الحصر، ولكن عين الهوى عمياء.

الخامس: الفكرة في مقابح الصورة التي تدعوه نفسه إليها: إن كانت معروفة بالإجابةِ له ولغيرِه؛ فيعزّ نفسه أن يشربَ من حوضٍ ترده الكلابُ والذئابُ؛ كما قيل:

سأترك وصلكم شرفًا وعـزًّا ... لِخِسَّةِ سـائرِ الـشُّركاءِ فيـه

وقال آخر:

إذا كَثُـر الـذبابُ عـلى طعـامٍ ... رفعتُ يدي ونفـسي تَـشْتهيه

وتجتنـبُ الأسـودُ ورود مَـاءٍ ... إذا كان الكلابُ يَلَغْـنَ فـيه

وتفصيلُ هذه الوجوه يطولُ جدًّا، فيكفي ذكْرُ أصولها.

وأما تقوية باعث الدين؛ فإنه يكون بأمور:

□ **أحدها: إجلال الله تبارك وتعالى أن يُعصى وهو يَرى ويسمع**، ومن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك ألبتة.

□ **الثاني: مشهد محبته سبحانه**: فيترك معصيته محبةً له، فإن المحبَّ لمن يحب مطيعُ.

□ **الثالث: مشهد النّعمةِ والإحسان**: فإن الكريمَ لا يقابلُ بالإساءة مَنْ أحسن إليه، وإنما يفعل هذا لئامُ الناسِ.

---

(١) الوطر: كل حاجة كان لصاحبها فيها همة. انظر: اللسان (مادة: وطر).

□ الرابع: **مشهد الغضب والانتقام**: فإن الربَّ تعالى إذا تمادى العبدُ في معصيتِه غَضِبَ، وإذا غضبَ لم يقم لغضبه شيءٌ فضلًا عن هذا العبدِ الضعيفِ.

□ الخامس: **مشهد الفوات**: وهو ما يفوته بالمعصية من خيرِ الدنيا والآخرةِ، وما يحدث له بها من كلِّ اسمٍ مذمومٍ عقلًا وشرعًا وعُرْفًا، ويزول عنه من الأسماءِ الممدوحةِ شرعًا وعقلًا وعُرْفًا.

□ السادس: **مشهد القهر والظفر**: فإن قهر الشهوةِ والظفرِ بالشيطان له حلاوةٌ ومسرةٌ وفرْحَة عند من ذاقَ ذلك أعظم من الظَّفَرِ بعدُوه من الآدميين وأحلى موقعًا وأتم فرحةً، وأما عاقبتُه فأحمدُ عاقبة، وهو كعاقبةِ شربِ الدواء النافعِ الذي أزال داء الجسدِ، وأعاده إلى صحته واعتداله.

□ السابع: **مشهد العِوَضِ**: وهو ما وعد الله سبحانه من تعويض من ترك المحارم لأجله، ونهى نفسه عن هواها، وليوازنه بين العوضِ والمعوضِ، فأيُّهما كان أولى بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه.

□ الثامن: **مشهد المعية**: وهو نوعان: معية عامة. ومعية خاصة.

فالعامة اطّلاعُ الربِّ عليه، وكونه بعينه لا تخفى عليه حالُه.

والمقصودُ هنا المعية الخاصة: كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]؛ فهذه المعيةُ الخاصةُ خيرٌ وأنفعُ في دنياه وآخرتِه ممن قضى وطرهَ ونالَ شهوتَه على التمام من أولِ عمرِه إلى آخرِه، فكيف يؤثر عليها لذةً مُنَغّصَةً مُنَكّدَةً في مدةٍ يسيرةٍ من العمر إنما هي كأحلامِ نائمٍ أو كظلٍّ زائلٍ؟!

□ **التاسع**: مشهدُ المغافصةِ والمعالجةِ، وهو أن يخاف أن يغافصَه الأجلُ، فيأخذه الله على غِرةٍ؛ فَيُحَالُ بينه وبين ما يشتهي من لذاتِ الآخرةِ، فيا لها من حسرةٍ ما أمرّها وما أصعبها، لكن لا يعرفها إلا من جرّبها.

□ **العاشر**: **مشهد البلاء والعافية**؛ فإن البلاءَ في الحقيقةِ ليس إلَّا الذنوبُ، وعواقبُها، والعافيةُ المطلقةُ هي الطاعاتُ وعواقبُها، فأهلُ البلاءِ هم أهلُ المعصيةِ وإن عوفيت أبدانُهم، وأهلُ العافيةِ هم أهلُ الطاعةِ وإن مرضت أبدانُهم.

□ **الحادي عشر**: **أن يُعَوّدَ باعث الدين ودواعيه مصارعةَ داعي الهوى** ومقاومته على التدريج قليلًا قليلًا حتى يدرك لذّة الظَّفَرِ؛ فتقوى حينئذ هِمَّتُه، فإن من ذاق لذة شيءٍ قويت همتُه في تحصيله، والاعتياد لممارسة الأعمال الشاقة تزيد القوى التي تصدر عنها تلك الأعمال.

□ **الثاني عشر**: **كف الباطل عن حديث النفس**، وإذا مرت به الخواطرُ نفاها ولا يؤويها ويساكنها، فإنها تصيرُ مُنًى، وهي رؤوس أموالِ المفاليسِ.

□ **الثالث عشر**: **قطعُ العلائق والأسبابِ التي تدعوه إلى موافقةِ الهوى**، وليس المرادُ أن لا يكون له هوى، بل المراد أن يَصرِفَ هواه إلى ما ينفعُه ويستعمله في تنفيذ مرادِ الرَّبِّ تعالى، فإن ذلك يدفعُ عنه شرَّ استعماله في معاصيه.

□ **الرابع عشر**: **صرفُ الفكرِ إلى عجائبِ آياتِ اللهِ** التي ندبَ عبادَه إلى التفكّرِ فيها، وهي آياتُه المتلوَّةُ وآياتهُ المجلوَّة.

□ **الخامس عشر**: **التفكر في الدنيا** وسرعةِ زوالِها وقربِ انقضائِها.

□ **السادس عشر**: **تعرضه إلى مَنِ القلوبُ بين أصبعيه**، وأزمَّة الأمورِ بيديه، وانتهاء كلِّ شيء إليه على الدوامِ، فلعله أن يصادفَ أوقاتَ النَّفحاتِ.

□ **السابع عشر: أن يعلم العبد بأن فيه جاذبين متضادين،** ومحنته بين الجاذبين: جاذب يجذبه إلى الرفيقِ الأعلى من أعلى عليين، وجاذبٍ يجذبه إلى أسفلِ سافلينَ.

فكلما انقادَ مع الجاذبِ الأعلى صعدَ درجةً حتى ينتهي إلى حيث يليق به من المحلِّ الأعلى، وكلما انقادَ إلى الجانبِ الأسفلِ نزلَ درجةً حتى ينتهي إلى موضعه من سجين.

□ **الثامن عشر: أن يعلمَ العبدُ أن تفريغَ المحلِّ شرطٌ لنزول غيث الرحمة،** وتنقيته من الدَّغل[1] شرطٌ لكمالِ الزَّرعِ، فمتى لم يُفَرَّغ المحلّ لم يصادف غيث الرحمةِ محلًا قابلًا ينزل فيه، وإن فرَّغه حتى أصابه غيثُ الرحمةِ، ولكنه لم يُنَقِّه من الدّغَل؛ لم يكن الزرعُ زرعًا كاملًا، بل ربما غَلَب الدَّغَلُ على الزَّرعِ فكان الحُكْمُ له.

□ **التاسع عشر: أَنْ يعلمَ العبدُ أنَّ الله سبحانه خَلَقَهُ لبقاءٍ لا فناءَ له،** ولعزٍّ لا ذلَّ معه، وأمنٍ لا خوفَ فيه، وغناءٍ لا فقرَ معه، ولذةٍ لا ألـم معها، وكمالٍ لا نقصَ فيه.

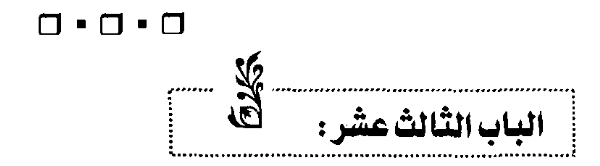
□ **العشرون: أن لا يغتر العبد باعتقاده أن مجرد العلم بما ذكرنا كافٍ في حصول المقصود،** بل لا بُدَّ أن يضيف إليه بذل الجهدِ في استعماله واستفراغ الوُسْعِ والطاقةِ فيه، وملاكُ ذلك الخروج عن العوائد؛ فإنها أعداءُ الكمالِ والفلاحِ، فلا أفلح من استمرَّ مع عوائده أبدًا، ويستعين على الخروج من العوائد بالهرب من مظان الفتنة والبعد عنها ما أمكنه، وقد قال النبي ﷺ: «**من سمع بالدَّجال فلينأَ**

(١) الدَّغَلُ: الشجر الملتف الذي يكمن أهل الفساد فيه، وقيل: هو من قولهم: أدغلت في هذا الأمر، إذا أدخلت فيه ما يخالفه ويفسده. انظر: النهاية (٢/ ١٢٣).

عَنْه»[1]، فما استعين على التخلص من الشرِّ بمثل البُعدِ عن أسبابِه ومظانِّه.

وها هنا لطيفةٌ للشيطان لا يتخلصُّ منها إلا حاذِقٌ، وهي أن يُظْهِرَ له في مظانِّ الشَّرِّ بعض شيءٍ من الخيرِ، ويدعوه إلى تحصيلِه، فإذا قَرُبَ منه ألقاه في الشبكةِ، والله أعلم.

□ ▪ □ ▪ □



الباب الثالث عشر:

في بيان أن الإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال

فإنَّه بين أمرٍ يجبُ عليه امتثالُه وتنفيذُه، ونهيٍ يجبُ عليه اجتنابُه وتركُه، وقدرٍ يجري عليه اتفاقًا، ونعمةٍ يجبُ شكرَ المنعم عليها، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقُه؛ فالصبرُ لازمٌ له إلى المماتِ، وكلُّ ما يلقى العبد في هذه الدارِ لا يخلو من نوعين:

- **أحدهما: يوافق هواه ومراده.**
- **والآخر: يخالفه.**

وهو محتاجٌ إلى الصبرِ في كُلٍّ منهما.

أما النوع الموافق لغرضه؛ فكالصحةِ، والسلامةِ، والجاهِ، والمالِ، وأنواع الملاذِّ المباحةِ، وهو أحوج شيءٍ إلى الصبرِ فيها من وجوه:

أحدها: أن لا يركن إليها، ولا يغترَّ بها، ولا تحمله على البَطَرِ والأَشَرِ والفرحِ المذمومِ الذي لا يحبُّ الله أهله.

---

(١) أبو داود (٤٣١٩)، والمسند (٤/ ٤٣١، ٤٤١).

الثاني: أن لا ينهمك في نيلها، ويبالغ في استقصائها؛ فإنها تنقلب إلى أضدادِها، فمن بالغَ في الأكلِ والشُّربِ والجماعِ انقلبَ ذلك إلى ضدِّه، وحُرِم الأكلَ والشُّربَ والجِمَاعَ.

الثالث: أن يصبرَ على أداء حقِّ الله فيها، ولا يُضَيِّعُه؛ فَيُسْلَبها.

الرابع: أن يصبر عن صرفها في الحرام: فلا يُمَكِّن نَفْسه من كلِّ ما تريدُه منها، فإنها توقعه في الحرام، فإنْ احترزَ كلَّ الاحترازِ أوقعته في المكروه، ولا يصبرُ على السَّرَّاء إلا الصِّديقون.

قال بعضُ السلفِ: «البلاءُ يَصبِرُ عليه المؤمنُ والكافرُ ولا يَصبِرُ على العافيةِ إلا الصِّديقون». وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «ابتُلينا بالضرَّاءِ فَصَبَرنا، وابتلينا بالسَّرَّاء فلم نصبِر».

ولذلك حذَّر الله عباده من فتنةِ المالِ والأزواجِ والأولادِ؛ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون:٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن:١٤].

وأما النوع الثاني المخالفُ للهوى فلا يخلو إما أن يرتبطَ باختيارِ العبدِ؛ كالطاعاتِ والمعاصي، أو لا يرتبطَ أولُه باختيارِهِ كالمصائبِ، أو يرتبطَ أولُه باختيارِه ولكن لا اختيارَ له في إزالتِه بعد الدخولِ فيه، فها هنا ثلاثةُ أقسام:

أحدها: **ما يرتبطُ باختياره**، وهو: جميعُ أفعاله التي توصفُ بكونها طاعة أو معصية.

فأما الطاعة فالعبدُ محتاجٌ إلى الصبر عليها؛ لأن النفس بطبعها تنفِرُ عن

كثيرٍ من العبودية، أما في الصلاة فَلِما في طبعِها من الكَسَلِ وإيثار الراحةِ ولا سيما إذا اتفق مع ذلك قَسْوةُ القلب وَرَيْنُ[1] الذنب، والميلُ إلى الشهواتِ، ومخالطةُ أهلِ الغفلةِ، فلا يكادُ العبدُ مع هذه الأمور وغيرها أن يفعلها، وإن فعلَها مع ذلك كان مُتكلِّفًا غائِبَ القلبِ ذاهلًا عنها طالبًا لفراقِها كالجالسِ إلى الجيفةِ، وأما الزكاة فلما في طبعها من الشُّحِّ والبُخل، وكذلك الحج والجهاد للأمرين جميعًا وطبعًا.

ويحتاجُ العبدُ هاهنا إلى الصَّبْرِ في ثلاثة أحوال:

- أحدها: قبل الشروع فيها بتصحيح النِّـيَّةِ والإخلاصِ.
- الحالة الثانية: الصبر حال العمل.
- الحالة الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل، وذلك من وجوه:

أحدها: أن يصبرَ نفسه عن الإتيانِ بما يبطل عمله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة:٢٦٤].

الثاني: أن يصبرَ عن رؤيتها والعجب بها والتكبر والتعظم بها.

الثالث: أن يصبرَ عن نقلها من ديوان السِّرِّ إلى ديوانِ العلانيةِ.

وأما الصبرُ عن المعاصي فأمرُه ظاهرٌ، وأعظم ما يعينُ عليه قَطْعُ المألوفاتِ، ومفارقةُ الأعوانِ عليها في المجالسةِ والمحادثةِ، وقطعُ العوائدِ.

القسم الثاني: ما لا يدخل تحتَ الاختيار، وليس للعبدِ حيلةٌ في دفعِه؛ كالمصائبِ التي لا صنعَ للعبدِ فيها، كموتِ من يَعِزُّ عليه، وسرقةِ ماله، ومرضِه، ونحو ذلك، وهذا نوعان:

---

(١) الرين: الطبع والتغطية، انظر النهاية (٢/ ٢٩).

- أحدهما: ما لا صنعَ للعبدِ الآدمي فيه.
- الثاني: ما أصابه من جهة آدمي مثله؛ كالسَّبِّ، والضرْبِ، وغيرهما.

فالنوعُ الأول للعبد فيه أربعةُ مقاماتٍ:

أحدها: مقامُ العجزِ.

المقام الثاني: مقامُ الصبرِ، إما لله وإما للمروءةِ الإنسانيةِ.

المقام الثالث: مقامُ الرضى وهو أعلى من قام الصبر.

المقام الرابع: مقامُ الشُّكرِ وهو أعلى من مقام الرضا.

وأما النوع الثاني: وهو ما أصابه من قِبَلِ الناس فله فيه هذه المقامات، ويضافُ إليها أربعةٌ أُخر:

أحدها: مقامُ العفوِ والصَفْحِ.

والثاني: مقامُ سلامةِ القلبِ من إرادةِ التشفي والانتقامِ.

والثالث: مقامُ شهودِ القدر.

المقام الرابع: مقامُ الإحسانِ إلى المسيء ومقابلة إساءته بإحسانِك.

القسم الثالث: ما يكون ورودُه باختياره، فإذا تمكَّنَ لم يكُنْ له اختيارٌ ولا حيلةٌ في دفعِه، وهذا كالعشقِ أولُه اختيارٌ وآخره اضطرارٌ، وكالتعرضِ لأسبابِ الأمراضِ والآلامِ التي لا حيلةَ في دفعها بعد مباشرةِ أسبابِها، كما لا حيلة في دفع السُّكْرِ بعد تناولِ المُسْكِرِ، فهذا كان فرضه الصبر عنه في أوله، فلما فاته بقي فرضُه الصبر عليه في آخره وأن لا يطيع داعي هواه ونفسه.

الباب الرابع عشر:

في بيان أشق الصبر على النفوس

مَشَقَّةُ الصبر بحسب قوةِ الداعيِ إلى الفعلِ وسهولتِه على العبدِ، فإذا اجتمعَ في الفعلِ هذان الأمران كان الصبرُ عنه أشقَّ شيءٍ على الصّابرِ، وإن فُقِدا معًا سَهُلَ الصبرُ عنه، وإن وُجدَ أحدهما وفُقِدَ الآخرُ سَهُلَ الصبرُ من وجهٍ وصعب من وجهٍ، فمن لا داعي له إلى القتلِ والسرقةِ وشُربِ المسكرِ وأنواعِ الفواحشِ، ولا هو سَهلٌ عليه فصبره عنه من أيسرِ شيءٍ وأسهلِه، ومن اشتد داعيه إلى ذلك، وسهل عليه فعلُه؛ فصبرُه عنه أشقُّ شيءٍ عليه، ولهذا كان صبرُ السلطانِ عن الظلمِ، وصبرُ الشابِّ عن الفاحشةِ، وصبرُ الغنيِّ عن تناولِ اللذاتِ والشّهواتِ عند اللهِ بمكانٍ، وفي المسند وغيره عن النبي ﷺ: «**عَجِبَ ربُّك من شابٍّ ليست له صبوة**»[١].

ولذلك استحق السَّبْعَةُ المذكورون في الحديث[٢] الذين يُظِلُّهم الله في ظلِّ عرشِه لكمالِ صبرهم ومشقته؛ فإن صبرَ الإمام المتسلِّط على العدل في قسْمِه وحُكْمِه ورضاه وغضبه، وصبرَ الشابِ على عبادةِ اللهِ ومخالفةِ هواه، وصبرَ الرجلِ على ملازمةِ المسجدِ، وصبرَ المتصدقِ على إخفاء الصدقةِ حتى عن بَعْضِه، وصبرَ المدعوِّ إلى الفاحشةِ مع كمالِ جمالِ الداعي ومنصبه، وصبرَ المتحابين في اللهِ على ذلك في حال اجتماعهما وافتراقهما، وصبرَ الباكي من خشيةِ اللهِ على كتمانِ ذلك وعدم إظهاره للناس من أشقِّ الصَّبْرِ.

---

(١) المسند (٤/ ١٥١). والصبوة: أي ميل إلى الهوى، انظر النهاية (٣/ ١١).

(٢) البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

ولما كانت عقوبةُ الشيخِ الزاني والملكِ الكاذبِ والفقيرِ المختالِ أشدَّ العقوبةِ لسهولةِ الصبرِ عن هذه الأشياءِ المحرماتِ عليهم لضعفِ دواعيها في حقهم، فكان تركُهم الصبرَ عنها مع سهولتِه عليهم دليلًا على تمردِهم على اللهِ وعتوِّهم عليه.

ولهذا كان الصبرُ عن معاصي اللسان والفرجِ من أصعبِ أنواعِ الصبرِ لشدَّة الداعي إليهما وسهولتهما؛ فإن معاصيَ اللسانِ فاكهةُ الإنسانِ؛ كالنَّميمةِ، والغيبةِ، والكذبِ والمراءِ، والثناءِ على النفسِ تعريضًا وتصريحًا، وحكاية كلام الناس، والطعنِ على من يبغضُه، ومدح من يحبُّه ونحو ذلك، فتنفقُ قوةُ الداعي وتيسرُ حركةُ اللسانِ، فيضعف الصبرُ، ولهذا قال ﷺ لمعاذٍ: «**أَمْسِك عليكَ لسانَك**» فقال: وإنا لمؤاخذونَ بما نتكلمُ به؟ فقال: «**وهل يَكُبُّ الناسَ في النارِ على مناخِرِهم إلا حصائدُ ألسنتِهم؟!**»[1].

ولاسيما إذا صارت المعاصي اللسانيةُ معتادةً للعبد، فإنه يَعُزُّ عليه الصَّبْرُ عنها، ولهذا تجدُ الرجلَ يقومُ الليلَ ويصومُ النهارَ، ويتورعُ من استنادِه إلى وسادةِ حريرٍ لحظة واحدة، ويطلق لسانَه في الغيبةِ، والنميمةِ، والتَّفَكُّهِ في أعراضِ الخلقِ، وربما خَصَّ أهلَ الصلاحِ والعلمِ باللهِ والدينِ والقولِ على اللهِ ما لا يعلم!

وكثير ممن تجده يتورعُ عن الدقائقِ من الحرامِ، والقطرةِ من الخمرِ، ومثل رأسِ الإبرةِ من النّجاسةِ، ولا يبالي بارتكابِ الفرجِ الحرامِ؛ كما يُحكى أن رجلًا خلا بامرأةٍ أجنبيةٍ، فلما أرادَ مواقعتَها قال: يا هذه غطّي وجهَكِ؛ فإن النظرَ إلى وجهِ الأجنبيةِ حرامٌ؟!

(١) الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

والمقصود: أن اختلاف شِدَّةِ الصبرِ في أنواعِ المعاصي وآحادِها يكون باختلافِ داعيه إلى تلك المعصيةِ في قوتِها وضعفِها.

□ ▪ □ ▪ □

الباب الخامس عشر:

في ذكر ما وردَ في الصبرِ في نصوصِ الكتابِ العزيزِ

قال الإمامُ أحمدُ رحمه الله: «ذكرَ اللهُ سبحانَه الصبرَ في القرآنِ في تسعينَ موضعًا» انتهى.

ونحن نذكرُ الأنواعَ التي سيق فيها الصبْرُ، وهي عدةُ أنواع:

□ أحدها: الأمرُ به؛ كقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧]، ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور:٤٨].

□ الثاني: النهي عمَّا يُضادُّه؛ كقوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران:١٣٩].

□ الثالث: تعليقُ الفلاح به، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠]؛ فَعَلَّق الفلاحَ بمجموع هذه الأمور.

□ الرابع: الإخبارُ عن مضاعفةِ أجرِ الصابرينَ على غيرِه؛ كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص:٥٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

□ **الخامس: تعليق الإمامة في الدين به وباليقين،** قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]؛ فبالصبر واليقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدّين.

□ **السادس: ظفرهم بمعيَّةِ الله سبحانه لهم،** قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]. قال أبو علي الدقاق: «فازَ الصابرونَ بعزِّ الدارينِ؛ لأنهم نالُوا من اللهِ معيَّتَه».

□ **السابع: أنه جمع للصابرين ثلاثةَ أمورٍ لم يجمعها لغيرِهم،** وهي: الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]. وقال بعضُ السلفِ ـ وقد عُزّيَ على مصيبةٍ نالته ـ فقال: «ما لي لا أصبرُ وقد وعدني اللهُ على الصبرِ ثلاثَ خصالٍ، كل خصلةٍ منها خيرٌ من الدنيا وما عليها».

□ **الثامن: أنه سبحانه جعلَ الصبرَ عونًا وعُدَّةً،** وأمرَ بالاستعانةِ به؛ فقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:٤٥]، فمن لا صبرَ له لا عونَ له.

□ **التاسع: أنه سبحانه علّقَ النصرَ بالصبرِ والتقوى؛** فقال تعالى: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:١٢٥]، ولهذا قال النبي ﷺ: «**واعلم أن النصرَ مع الصبرِ**».

□ **العاشر: أنه سبحانه جعلَ الصبرَ والتقوى جُنَّةً عظيمةً من كيدِ العدوِّ ومكره،** فما استجن العبدُ من ذلك جنّةً أعظم منهما، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران:١٢٠].

□ **الحادي عشر: أنه سبحانه أخبرَ أنَّ ملائكته تُسَلِّمُ عليهم في الجَنَّة**؛ كما قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

□ **الثاني عشر: أنه سبحانه أباحَ لهم أن يعاقِبوا على ما عُوقبوا به، ثم أقسم** قَسَمًا مؤكدًا غايةَ التأكيدِ أنَّ صبرَهم خيرٌ لهم؛ فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦]. فتأمل هذا التأكيدَ بالقسمِ المدلولِ عليه بالواو ثم باللامِ بعده ثم باللامِ التي في الجوابِ.

□ **الثالث عشر: أنه سبحانه رتَّبَ المغفرةَ والأجرَ الكبيرَ على الصبرِ والعمل الصالح**؛ فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود:١١]. وهؤلاء ثنية[1] اللهِ من نوعِ الإنسانِ المذمومِ الموصوفِ باليأسِ والكفرِ عند المصيبةِ، والفرحِ والفخرِ عند النعمةِ.

□ **الرابع عشر: أنه سبحانه جعلَ الصبرَ على المصائبِ من عزمِ الأمورِ**؛ أي: مما يعزم من الأمور التي إنما يُعزم على أجلِّها وأشرفِها؛ فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣]، وقال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧].

□ **الخامس عشر: أنه سبحانه وعدَ المؤمنينَ بالنصرِ والظفرِ**، وهي كلمته التي سبقت لهم وهي الكلمةُ الحسنى، وأخبر أنَّه إنما أنالَهُم ذلك بالصبرِ، فقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف:١٣٧].

□ **السادس عشر: أنه سبحانه عَلَّق محبتَه بالصَّبرِ، وجعلها لأهلِه**؛ فقال:

---

(١) ثنية الله: الذين استثناهم الله.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦].

□ **السابع عشر: أنه سبحانه أخبرَ عن خصالِ الخير أنه لا يُلَقَّاها إلا الصابرون** في موضعين من كتابه: في سورة القصص في قصة قارون، وأن الذين أوتوا العلم قالوا للذين تمنوا مثل ما أوتي: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾ [القصص:٨٠]. وفي سورة حم السجدة، حيث أمر العبد أن يدفع بالتي هي أحسن، فإذا فعل ذلك صارَ الذي بينه وبينه عداوةٌ كأنه حبيبٌ قريبٌ ثم قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٥].

□ **الثامن عشر: أنه سبحانه أخبر أنه إنما يَنتفعُ بآياته ويَتَّعِظُ بها الصَّبَّارُ الشكور**؛ فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم:٥].

وقال تعالى في لقمان: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [لقمان:٣١].

□ **التاسع عشر: أنه أثنى على عبدِه أيوبَ بأحسنِ الثناءِ على صبرِه؛ فقال:** ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٤٤]؛ فأطلق عليه نعمَ العبدُ بكونِه وَجَدَه صابرًا، وهذا يدلُّ على أنَّ من لم يصبر إذا ابتُلي فإنَّه بِئسَ العبدُ.

□ **العشرون: أنه سبحانه حَكَم بالخسران حُكمًا عامًّا على كلِّ من لم يؤمن، ولم يكن من أهل الحقِّ والصبرِ**، وهذا يدل على أنه لا رابح سواهم؛ فقال تعالى:

﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

ولهذا قال الشافعي: «لو فكر الناسُ كلُّهم في هذه الآية لَوَسِعَتْهُم».

□ الحادي والعشرون: أنه سبحانه خصَّ أهلَ الميمنةِ بأنهم أهلُ الصبرِ والمرحمةِ الذين قامت بهم هاتان الخصلتان، ووصّوا بهما غيرهم؛ فقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد:١٧-١٨].

□ الثاني والعشرون: أنه سبحانه قَرَن الصبرَ بأركانِ الإسلامِ ومقاماتِ الإيمانِ كلِّها: فقرنه بالصلاة؛ كقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:٤٥]. وقرنه بالأعمالِ الصالحةِ عمومًا؛ كقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود:١١]. وجعله قرينَ التقوى، كقوله: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف:٩٠]. وجعله قرينَ الشكرِ، كقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥]. وجعله قرينَ الحقِ، كقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣]. وجعله قرينَ الرحمةِ، كقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١٧]. وجعله قرينَ اليقينِ، كقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]. وجعله قرينَ الصدقِ، كقوله: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]. وجعله سببَ محبتِه ومعيتِه ونصرِه وعونِه وحسنِ جزائِه، ويكفي بعضِ ذلك شرفًا وفضلًا، والله أعلم.

□ ▪ □ ▪ □

الباب السادس عشر:

في ذكر ما ورد فيه من نصوص السنة

في الصحيحين[(١)] من حديث أنس بن مالك ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أتى على امرأةٍ تبكي على صبيٍّ لها، فقال لها: «**اتقي الله واصبري**». فقالت: وما تبالي بمصيبتي؟ فلما ذهبَ، قيل لها: إنه رسول الله ﷺ، فأخذها مثلُ الموتِ، فأتت بابَه، فلم تجد على بابه بوّابين، فقالت: يا رسولَ اللهِ، لم أعرفك. فقال: «**إنما الصبرُ عند أولِ صدمةٍ**». وفي لفظ: «**عند الصدمةِ الأولى**».

وقوله: «**الصبرُ عند الصدمة الأولى**»، مثل قوله: «**ليس الشديد بالصرعة إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسه وقت الغضب**»؛ فإن مفاجآت المصيبة لها روعةٌ تزعزعُ القلبَ وتزعجه بصدمِها، فإنْ صَبَرَ للصدمة الأولى انكسرَ حَدُّها، وضعفت قوتُها؛ فهان عليه استدامةُ الصبر.

وفي صحيح مسلم[(٢)] عن أمِّ سلمةَ قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**ما من مسلمٍ تصيبُه مصيبةٌ فيقول ما أمرَه الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجُرْني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها**».

قالت: فلما مات أبو سلمة ﷺ قلت: أيّ المسلمين خيرٌ من أبي سلمة؛ أول بيتٍ هاجر إلى رسولِ الله ﷺ، ثم إني قلتُها، فأخلف الله لي رسولَه ﷺ، فأرسل إليَّ رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له، فقلت: إن لي بنتًا وأنا غيورٌ، فقال ﷺ: «**أما بنتُها فأدعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب**

(١) البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).
(٢) مسلم (٩١٨).

بالغَيْرَة»، فتزوجت رسولَ الله ﷺ».

فانظر عاقبةَ الصبرِ والاسترجاع ومتابعة الرسولِ والرضاءِ عن اللهِ إلى ما آلت إليه، وأنالت أمّ سلمة نكاحَ أكرمِ الخلقِ على الله.

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولدُ العبدِ قال الله لملائكته: قبضتم ولدَ عبدي، فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرةَ فؤادِه. فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجعك. فيقول: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنّة وسموه بيتَ الحمد»[1].

وفي صحيح البخاري[2] من حديث أنس أن رسولَ الله ﷺ قال: «إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه ثم صَبَرَ عوَّضْتُه منهما الجَنَّةَ»؛ يريد: عينيه.

وعند الترمذي[3] في الحديث: «إذا أخذتُ كَريمتي عبدي في الدنيا لم يكن له جزاءٌ عندي إلا الجَنَّة».

وفي صحيح البخاري[4] من حديثِ أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «يقولُ الله عزَّ وجلَّ: ما لعبدي المؤمن جزاءٌ إذا قبضت صفيَّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة».

وفي صحيحه[5] أيضًا عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أُريك امرأةً من أهلِ الجنة؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداءُ أتت النَّبيَّ ﷺ

(١) الترمذي (١٠٢١)، والمسند (٤/ ٤١٥).
(٢) البخاري (٥٦٥٣).
(٣) الترمذي (٢٤٠٠).
(٤) البخاري (٦٤٢٤).
(٥) البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

فقالت: يا رسولَ الله، إنِّي أصرعُ، وإني أتكشَّفُ؛ فادعُ الله لي. قال: **إن شئت صبرتِ ولك الجنةُ، وإن شئتِ دعوتُ الله ـ تعالى ـ أن يعافيَك.** فقالت: أصبر. وقالت: إني أتكشَّفُ فادعُ الله أن لا أتكشَّف؛ فدعا لها».

ومن حديث أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«ما يصيبُ المسلمَ من نصبٍ ولا وصبٍ ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا أذًى ولا غَمٍّ حتى الشّوكةَ يُشاكها إلا كفّرَ الله بها من خطاياه»**[1].

وفي المسند[2] من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«لا يزالُ البلاءُ بالمؤمن أو المؤمنةِ في جَسَدِه وفي مالِه وفي ولِده حتى يلقى الله وما عليه خَطيئة»**.

وفي الصحيحين[3] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «دخلتُ على النبي ﷺ وهو يوعَك وعكًا شديدًا. قال: فقلت: يا رسول الله، إنك لتوعك وَعْكًا شديدًا. فقال: أجل، إني لأوعَك كما يوعَكُ رجلان منكم. قلت: إنَّ لك لأجرين. قال: نعم، والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبُه أذى من مرضٍ فما سواه؛ إلا حطّ الله عنه به خطاياه، كما تحطُّ الشجرةُ اليابسةُ ورقَها».

وفي صحيح البخاري[4] من حديث خبّاب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ ببُردةٍ في ظلِّ الكعبةِ، فقلنا: ألا تستنصرُ لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: **«قد كان من قبلكم يُؤْخَذُ الرجلُ فيُحفرُ له في الأرضِ فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسِه فيجعل نصفين، ويمشطُ بأمشاطِ الحديد ما دون**

(١) البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣)، النصب: التعب، الوصب: دوام الوجع ولزومه.
(٢) الترمذي (٢٣٩٩)، والمسند (٢/ ٢٨٧، ٤٥٠).
(٣) البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١).
(٤) البخاري (٣٦١٢).

لحمِه وعظمِه ما يصدُّه عن دينه، والله لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمرَ حتى يسير الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَ موتٍ لا يخافُ إلا الله والذئبَ على غَنمِه، ولكنكم تستعجلون».

وفي سنن النسائي[١] **عن ابن عباس** قال: «احتضرت ابنةٌ لرسولِ الله ﷺ صغيرة، فأخذها رسولُ الله ﷺ وضمَّها إلى صدرِه ثم وضع يده عليها وهي بين يدي رسول الله ﷺ فبكت أمُّ أيمن، فقلت لها: أتبكين ورسول الله عندك؟ فقالت: ما لي لا أبكي ورسول الله ﷺ يبكي! فقال رسول الله ﷺ: «**إني لست أبكي ولكنّها رحمةٌ، ثم قال رسول الله ﷺ: المؤمنُ بخيرٍ على كلِّ حالٍ، تُنزعُ نفسُه من بين جنبيه وهو يحمدُ الله عزَّ وجلَّ**».

وفي صحيح البخاري[٢] **من حديثِ أنس** رضي الله عنه قال: «اشتكى ابنٌ لأبي طلحة فمات وأبو طلحة خارجٌ، فلما رأت امرأتُه أنه قد مات هَيَّأت شيئًا، وسجَّته[٣] في جانبِ البيت، فلما جاءَ أبو طلحة قال: كيف الغلامُ؟ قالت: قد هَدَأَتْ نفسُه، وأرجو أن يكونَ قد استراحَ؛ فظنَّ أبو طلحة أنها صادقةٌ. قالت: فبات معها، فلما أصبحَ اغتسل، فلما أراد أن يخرُجَ أعلمته أنه قد مات، فصلى مع رسول الله ﷺ ثم أخبره ما كان منهما، فقال رسول الله ﷺ: «**لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما**». قال ابن عيينة: فقال رجلٌ من الأنصار: فرأيت له تسعةَ أولادٍ كلهم قد قرأوا القرآنَ.

□ ▪ □ ▪ □

(١) النسائي (١٨٤٣)، والمسند (١/ ٢٧٣ – ٢٧٤، ٢٩٧).
(٢) البخاري (١٣٠١)، ومسلم (٢١٤٤).
(٣) سجته: أي خطته.



الباب السابع عشر:

في الآثارِ الواردةِ عن الصحابةِ ومَنْ بَعْدَهم في فضيلةِ الصَّبرِ

مَرِضَ أبو بكر رضي الله عنه فعادوه فقالوا: ألا ندعو لك الطبيبَ؟ فقال: قد رآني الطبيبُ. قالوا: فأي شيءٍ قال لك؟ قال: إنِّي فعالٌ لما أُريد.

وقال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصبرِ».

وقال أيضًا: «أفضلُ عيشٍ أدركناه بالصبرِ، ولو أنَّ الصبرَ كان من الرجالِ كان كريمًا».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا إن الصبرَ من الإيمانِ بمنزلةِ الرأسِ من الجسدِ، فإذا قُطِع الرأسُ بارَ الجسدُ». ثم رفع صوتَه فقال: «ألا إنه لا إيمانَ لمن لا صبرَ له». وقال: «الصبرُ مَطيَّةٌ لا تكبو».

وقال الحسن: «الصبرُ كَنزٌ من كنوزِ الخير لا يعطيه الله إلا لعبدٍ كريمٍ عنده».

وقال عمر بن عبد العزيز: «ما أنعمَ اللهُ على عبدٍ نعمةً فانتزعها منه فعاضه مكانَها الصبرَ إلا كان ما عوّضه خيرًا مما انتزعه».

وقال ميمونُ بن مهران: «ما نال أحدٌ شيئًا من جسيم الخير نبيٌّ فمن دونه إلا بالصَّبْرِ».

وقال سليمان بن القاسم: «كل عملٍ يُعرفُ ثوابُه إلا الصبر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، قال: كالماء المنهمر».

وكان محمد بن شبرمة إذا نزل به بلاء قال: سحابةُ صيفٍ ثم تنقشعُ.

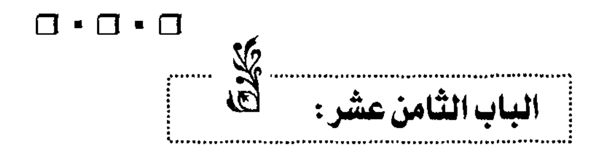
وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة:٢٤]: لما أخذوا برأس الأمرِ جعلناهم رءوسًا.

وقيل للأحنف بن قيس: ما الحِلم؟ قال: أن تصبر على ما تكره قليلًا.

وقال يونس بن يزيد: «سألت ربيعة بن أبي عبدالرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال: أن يكون يومَ تصيبه المصيبةُ مثله قبل أن يصيبَه».

وقال قيس بن الحجاج في قول الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج:٥] قال: «أن يكون صاحبُ المصيبة في القومِ لا يُعرفُ من هو».

□ ▪ □ ▪ □



الباب الثامن عشر:

في ذكر أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشق الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها

فمنها البكاءُ على المَيِّت:

ومذهبُ أحمد وأبي حنيفة أجازاه قبل الموتِ وبعدَه، واختارَه أبو إسحاق الشيرازي، وكرهه الشافعيُّ وكثيرٌ من أصحابه بعد الموت ورخَّصوا فيه قبلَ خروجِ الروحِ، واحتجوا بحديثِ جابرِ بن عتيك: «أن رسول الله ﷺ جاء يعودُ عبد الله بن ثابت فوجده قد غُلِب، فصاح به فَلم يُجب، فاسترجع وقال: **غلبنا عليك يا أبا الرّبيع**، فصاح النِّسوة وبكين، فجعل ابن عتيك يُسكِّتهن، فقال رسول الله ﷺ: «**دَعْهُن، فإذا وجبَ فلا تَبْكيَنَّ باكيةٌ**». قالوا: وما الوجوبُ يا رسول الله؟ قال: «**الموت**». رواه أبو داود والنسائي[1].

(١) أبو داود (٣١١١)، والنسائي (١٨٤٦).

وفي الصحيحين[1] **من حديث ابن عمر** رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الميتَ ليعذَّبُ ببكاءِ أهلِه عليه**». وهذا إنما هو بعد الموت، وأما قبله فلا يُسَمَّى ميتًا.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أنَّ رسول الله ﷺ لما قَدِم من أُحُدٍ سمعَ نساءَ بني عبدِ الأشهل يبكين على هَلْكَاهُن، فقال: «**لكن حمزةَ لا بواكي له**»، فجئن نساءُ الأنصارِ؛ فبكين على حمزة عنده، فاستيقظ فقال: **ويحهن أتين هاهنا يبكين حتى الآن، مروهن فليرجعن ولا يبكين على هالك بعدَ اليوم**». رواه الإمام أحمد[2].

وهذا صريح في نسخِ الإباحةِ المتقدِّمة.

والفرق بين ما قبلَ الموتِ وبعدَه: أنه قبل الموت يرجى فيكون البكاء عليه حذرًا، فإذا مات انقطع الرجاءُ وأبرم القضاءُ فلا ينفعُ البكاءُ.

قال المُجوِّزُون: قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «أصيب أبي يومَ أحد فجعلت أبكي فجعلوا ينهونني ورسول الله ﷺ لا ينهاني، فجعلت عمّتي فاطمة تبكي، فقال النبي ﷺ: «**تبكين أو لا تبكين، ما زالت الملائكة تُظِلّه بأجنحتها حتى رفعتموه**». متفق عليه[3].

وفي الصحيحين[4] **أيضًا عن ابن عمر** رضي الله عنهما قال: «اشتكى سعدُ بن عبادة شكوى له؛ فأتاه النبي ﷺ يعودُه مع عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم؛ فلما دخل عليه وجدَه في غشية فقال: «**قد مضى؟**»

---

(١) البخاري (١٢٨٦)، ومسلم (٩٢٨).
(٢) المسند (٢/ ٤٠، ٨٤، ٩٢).
(٣) البخاري (١٢٤٤)، ومسلم (٢٤٧١).
(٤) البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (٩٢٤).

قالوا: لا يا رسول الله، فبكى رسول الله ﷺ، فلما رأى القوم بكاءه بكوا، فقال: «**ألا تسمعون، إن الله لا يعذبُ بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا ـ** وأشار إلى لسانه ـ **أو يرحم**».

وفي الصحيحين[١] **أيضًا من حديث أسامة بن زيد**: «أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته ولها صبيٌّ في الموتِ، فرُفِعَ إليه الصبيُّ ونفسه تُقَعْقع كأنها في شِنّة، ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «**هذه رحمةٌ جعلها الله في قلوبِ عباده، وإنما يرحمُ الله من عباده الرحماء**».

وفي المسند[٢] **أيضًا عن عائشة**: أن سعد بن معاذ لما مات حضره رسولُ الله ﷺ وأبو بكر وعمر، قالت: «فوالذي نفسي بيده إني لأعرفُ بكاءَ أبي بكرٍ من بكاء عمر وأنا في حُجْرتي».

وفي جامع الترمذي[٣] **عن جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما **قال**: «أخذ النبي ﷺ بيد عبدالرحمن بن عوف، فانطلق إلى ابنه إبراهيم فوجده يجودُ بنفسه، فأخذه النبي ﷺ فَوَضعه في حِجْرِه فبكى، فقال له: أتبكي، أو لم تكن نهيت عن البكاءِ؟ قال: «**لا، ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند مصيبة: خمش الوجه، وشق الجيوب، ورنّة الشيطان**». قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقد صَحَّ عنه ﷺ: أنه «زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله»[٤]. وقد صح عنه ﷺ: أنه «قَبَّل عثمان بن مظعون حتى سالت دموعه على وجهه»[٥]. وصح

(١) البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).
(٢) المسند (٦/ ١٤١ – ١٤٢).
(٣) الترمذي (١٠٠٥).
(٤) مسلم (٩٧٦).
(٥) أبو داود (٣١٦٣)، والترمذي (٩٨٩)، وابن ماجه (١٤٥٦).

عنه: أنه «نعى جعفر وأصحابه وعيناه تذرفان»[١]. وصحَّ عن أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه «أنه قبَّل النبيَّ ﷺ وهو ميتٌ وبكى»[٢].

فهذه اثنتا عشرة حجة تدلُّ على عدم كراهة البكاءِ، فتعين حَمْلُ أحاديث النَّهْيِ على البكاء الذي معه نَدْبٌ ونِياحةٌ، ولهذا جاء في بعض ألفاظِ حديث عمر: «الميت يعذَّبُ ببعض بكاءِ أهلِه عليه» وفي بعضها: «يعذب بما نيح عليه»[٣].

وفي الصحيحين[٤] أيضًا عن المغيرة بن شعبةَ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ مَنْ نيحَ عليه يُعَذَّبُ بما نيحَ عليه».

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر: أن النبي ﷺ قال: «الميّتُ يعذَّبُ في قبرِه بما نِيحَ عليه».

وفي صحيح مسلم[٥] عن أبي مالك الأشعري: أنَّ النبي ﷺ قال: «أربعٌ في أمتي من أمرِ الجاهليةِ لا يتركونهن: الفخرُ بالأحسابِ، والطعنُ في الأنسابِ، والاستسقاءُ بالنجومِ، والنياحةُ». وقال: «النائحةُ إذا لم تتب قبل موتها تُقام يوم القيامةِ وعليها سِرْبالٌ من قَطِران ودِرعٌ من جَرَبٍ».

□ ▪ □ ▪ □

(١) البخاري (٣٦٣٠).
(٢) البخاري (٤٤٥٥، ٤٤٥٦، ٤٤٥٧).
(٣) البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٩٢٧).
(٤) البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٩٣٣).
(٥) مسلم (٩٣٤).

الباب التاسع عشر:

في أنَّ الصبرَ نصفُ الإيمانِ

والإيمانُ نصفانِ: نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ.

قال غير واحد من السلف: «الصبر نصفُ الإيمان».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «الإيمانُ نصفانِ: نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ».

ولهذا جمع الله ـ سبحانه ـ بين الصبر والشكر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥]، وفي سورة حم عسق [٣٣]، وفي سورة سبأ [١٩]، وفي سورة لقمان [٣١]، وقد ذُكِرَ لهذا التصنيف اعتباراتٌ:

□ **أحدها: أن الإيمانَ اسمٌ لمجموعِ القولِ والعملِ والنِّيَّةِ**، وهي ترجعُ إلى شطرين: فعلٍ وتركٍ، فالفعلُ هو العملُ بطاعةِ اللهِ وهو حقيقةُ الشكرِ، والتركُ هو الصبرُ عن المعصيةِ، والدِّينُ كُلُّه في هذين الشيئين: فعلِ المأمورِ، وتركِ المحظورِ.

□ **الاعتبار الثاني: أنَّ الإيمانَ مبنيٌّ على ركنين: يقينٍ، وصبرٍ.** وهما الركنان المذكوران في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

□ **والاعتبار الثالث: أن الإيمانَ قولٌ وعملٌ**، والقولُ قولُ القلبِ واللِّسانِ، والعملُ عملُ القلبِ والجوارحِ.

□ **الاعتبار الرابع: أن النفسَ لها قوّتان: قوةُ الإقدام، وقوةُ الإحجام**، وهي دائمًا تَتَرَدَّدُ بين أحكامِ هاتين القوَّتينِ، فتُقْدِمُ على ما تحبُّه، وتُحْجِمُ عما تكرهُهُ، والدينُ كله إقدامٌ وإحجامٌ، إقدامٌ على طاعة، وإحجامٌ عن معاصي الله، كُلٌّ منهما

لا يمكن حصولُه إلا بالصبر.

□ **الاعتبار الخامس: أنَّ الدِّينَ كلَّه رغبةٌ ورهبةٌ،** فالمؤمنُ هو الراغبُ الراهبُ. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠].

فلا تجد المؤمن أبدًا إلا راغبًا وراهبًا.

□ **الاعتبار السادس: أن جميعَ ما يباشرُه العبدُ في هذه الدارِ لا يخرجُ عما ينفعُه في الدنيا والآخرة، أو يَضُرُّه في الدنيا والآخرةِ، أو ينفعُهُ في إحدى الدارين، ويضرُّه في الأخرى.**

□ **الاعتبار السابع: أن العبد لا يَنْفَكُّ عن أمرٍ يفعلُه، ونهيٍ يتركُه، وقدرٍ يجري عليه،** وفرضُه في الثلاثةِ الصبرُ والشُّكرُ.

□ **الاعتبار الثامن: أن العبدَ فيه داعيان:** داعٍ يدعوه إلى الدنيا وشهواتِها ولذّاتها، وداعٍ يدعوه إلى اللهِ والدارِ الآخرةِ.

□ **الاعتبار التاسع: أن الدين مدارُه على أصلين: العزمِ والثباتِ،** وهما الأصلان المذكوران في الحديثِ الذي رواه أحمد والنسائي[1] عن النبيِّ ﷺ: «**اللهمَّ إني أسألُكَ الثّباتَ في الأَمْرِ، والعزيمةَ على الرُّشدِ**».

□ **الاعتبار العاشر: أن الدين مبني على أصلين: الحقِّ والصبرِ،** وهما المذكوران في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٣]، والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) المسند (٤/ ١٢٣، ١٢٥)، والنسائي (١٣٠٤)، والترمذي (٣٤٠٧).



الباب العشرون: 

في بيان تنازع الناس في الأفضل من الصبر والشكر

حكى أبو الفرج ابن الجوزي في ذلك ثلاثة أقوال:

- **أحدها**: أن الصَّبرَ أفضلُ.
- **والثاني**: أنَّ الشُّكرَ أفضلُ.
- **والثالث**: أنهما سواءٌ؛ كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو كان الصبرُ والشكرُ بعيرين ما باليتُ أيَّهما ركبتُ».

ونحن نذكرُ ما احتجَّت به كلُّ فرقةٍ، وما لها وعليها في احتجاجِها، بعونِ الله وتوفيقِهِ.

قال الصابرون: قد أثنى الله سبحانه على الصبر وأهله ومَدَحَه وأَمَرَ به، وعلَّق عليه خيرَ الدنيا والآخرة، وقد ذكرَه الله في كتابه في نحوِ تسعينَ موضعًا، ويكفي في فضله قولُه ﷺ: «**الطاعمُ الشّاكرُ بمنزلةِ الصائمِ الصابر**»[1]؛ فذكر ذلك في معرضِ تفضيلِ الصبرِ ورفعِ درجتِه على الشكرِ، فإنه ألحقَ الشاكرَ بالصابرِ وشَبَّهَهُ به، ورُتْبَةَ المُشَبَّهِ به أعلى من رتبة المُشَبَّه، وهذا كقوله: «**مُدمِنُ الخَمْرِ كعابِدِ وَثَنٍ**»[2]، ونظائر ذلك.

قالوا: وإذا وازنا بين النصوصِ الواردةِ في الصبرِ والواردةِ في الشكرِ وجدنا نصوصَ الصبرِ أضعافَها، ولهذا لما كانت الصلاةُ والجهادُ أفضلَ الأعمالِ كانت

(١) الترمذي (٢٤٨٦)، وابن ماجه (١٧٦٤).
(٢) ابن ماجه (٣٣٧٥)، والمسند (١/ ٢٧٢).

الأحاديثُ فيهما في سائرِ الأبوابِ، فلا تَجِدُ الأحاديثَ النبويَّةَ في بابٍ أكثرَ منها في بابِ الصلاةِ والجهادِ.

قالوا: وأيضًا؛ فالصبر يدخلُ في كلِّ بابٍ، بل في كلِّ مسألةٍ من مسائلِ الدينِ، ولهذا كان من الإيمانِ بمنزلة الرأسِ من الجَسدِ.

قالوا: وأيضًا؛ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ عَلَّق على الشكرِ الزيادةَ؛ فقال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧]، وعلق على الصبرِ الجزاءَ بغير حسابٍ.

وأيضًا؛ فإنه سبحانه أطلقَ جزاءَ الشاكرينَ فقال: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٤]، وقيَّد جزاء الصابرينَ بالإحسانِ؛ فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٦].

قالوا: وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقولُ اللهُ تعالى: كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدمَ له إلا الصَّوْمَ؛ فإنَّه لي، وأنا أَجْزي به**»[1].

وما ذلك إلا لأنَّه صبرُ النفسِ ومنعُها من شهواتِها.

قالوا: ويكفي في فضلِ الصبرِ على الشكرِ قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [المؤمنون:١١١]، فجعل فوزَهم جزاءُ صبرِهم.

قالوا: وقد دلَّ الدليلُ على أنَّ الزُّهْدَ في الدنيا والتقلُّلَ منها مهما أمكن أفضلُ من الاستكثارِ منها، والزهد فيها حالُ الصابرِ، والاستكثار منها حالُ الشاكرِ.

قالوا: ويدل على صحةِ هذا أن النَّبيَّ ﷺ عُرِضت عليه مفاتيح كنوزِ الأرضِ

(١) البخاري (٥٩٢٧)، ومسلم (١١٥١١).

فلم يأخذها، وقال: «**بل أجوعُ يومًا، وأشبَعُ يومًا**»[1]، ولو أخذَها لأنفقَها في مرضاةِ اللهِ تعالى وطاعته، فآثَرَ مقامَ الصَّبرِ عنها والزهدِ فيها.

قال الشاكرون: لقد تَعدَّيتم طورَكم، وفضَّلتم مقامًا غيرُه أفضلُ منه، وقدَّمتم الوسيلةَ على الغايةِ، والمطلوبَ لغيره على المطلوبِ لنفسه، والعملَ الكاملَ على الأكملِ، والفاضلَ على الأفضلِ، ولم تعرفوا للشكرِ حقَّه ولا وَفَّيتُموه مرتَبَتَه.

وقد قرن الله تعالى ذكرَه الذي هو المراد من الخلقِ بذكره، وكلاهما هو المرادُ بالخلقِ والأمرِ، والصبرُ خادمٌ لهما، ووسيلةٌ إليهما وعونٌ عليهما، قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢].

وقرن سبحانه الشُّكرَ بالإيمانِ وأخبرَ أنه لا غرضَ له في عذابِ خلقه إن شكروا وآمنوا به فقال: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ﴾ [النساء:١٤٧].

وأخبر سبحانه أنَّ أهلَ الشكرِ هم المخصوصون بمِنّته عليهم من بين عباده فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣].

وقَسَّم الناس إلى شكورٍ وكفورٍ، فأبغضُ الأشياءِ إليه الكفرُ وأهلُه، وأحبُّ الأشياء إليه الشّكرُ وأهلُه، قال تعالى في الإنسانِ: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣].

وهذا كثيرٌ في القرآن يقابله سبحانه بين الشكرِ والكفرِ؛ فهو ضدُّه.

(١) البخاري (٥٩٢٧)، ومسلم (١١٥١).

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤].

والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمةِ الإيمانِ؛ فلم ينقلبوا على أعقابِهم.

ووصفَ سبحانَهُ الشاكرينَ بأنهم قليلٌ من عبادِهِ فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

وقد أثنى اللهُ سبحانه وتعالى على أوَّلِ رسولٍ بعثَه إلى أهلِ الأرضِ بالشُّكرِ؛ فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣].

وقد أخبرَ سبحانه إنما يعبُدُه من شَكَرَه، فمن لم يشكرُه لم يكن من أهلِ عبادتِه؛ فقال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢].

وأمرَ عبده موسى أن يتلقى ما أتاه من النُّبُوَّةِ والرِّسالةِ والتَّكليمِ بالشكرِ؛ فقال تعالى: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤]، وأولُ وصيَّةٍ وصَّى الله بها الإنسانَ بعد ما عقَلَ عنه، بالشكرِ له وللوالدينِ؛ فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤].

وأخبرَ أن رضاه في شكرِهِ؛ فقال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧].

وأثنى سبحانه على خليلِه إبراهيمَ بشُكْرِ نِعَمِه؛ فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢٠-١٢١].

وأخبرَ سبحانه أن الشكرَ هو الغاية من خلقِه وأمرِه، بل هو الغاية التي خَلَقَ عبيدَه لأجلها: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

قالوا: فالشكرُ مرادٌ لنفسِهِ، والصبرُ مرادٌ لغيرِه، والصبرُ إنما حُمِدَ لإفضائِه وإيصالِه إلى الشكرِ؛ فهو خادمُ الشكرِ.

وقد ثبت في الصحيحين[1] عن النبي ﷺ «أنه قام حتى تَفَطَّرت قَدَمَاهُ، فقيل له: أتفعلُ هذا وقد غَفَرَ الله لك ما تقدم من ذنبِكَ وما تأخَّر؟ قال: «**أفلان أكون عبْدًا شكورًا**».

وقد ثبت في صحيح مسلم[2] عنه ﷺ أنه قال: «**إنَّ اللهَ ليرضى عن العبدِ يأكلُ الأكلةَ فيحمدُه عليها، ويشربُ الشَّرْبَةَ فيحمدُه عليها**». فكان هذا الجزاءُ العظيم الذي هو أكبرُ أنواع الجزاءِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] في مقابلِة شكرِه بالحمدِ.

□ ▪ □ ▪ □



الباب الحادي والعشرون:

في الحكمِ بينَ الفَرِيقينِ، والفصلِ بين الطائِفَتينِ

نقول: كلُّ أمرين طُلِبت الموازنةُ بينهما ومعرفةُ الراجحِ منهما على المرجوحِ، فإن ذلك لا يمكن إلا بعدَ معرفَةِ كلٍّ منهما، وقد ذكرنا حقيقةَ الصبرِ وأقسامَه وأنواعَه، ونذكرُ حقيقةَ الشُّكْرِ وماهيته.

(١) البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم(٢٨١٩).
(٢) مسلم (٢٧٣٤).

قال في (الصحاح): الشُّكرُ الثناءُ على المُحْسِنِ بما أو لاكَهَ من المعروفِ، يقال: شكَرتُهُ، وشَكَرْتُ لَهُ. واللام أفصحُ.

وشُكْرُ العبدِ يدورُ على ثلاثةِ أركان، لا يكون شاكرًا إلا بمجموعِها:

- **أحدها:** اعترافُه بنعمةِ الله عليه.
- **والثاني:** الثناءُ عليه بها.
- **والثالث:** الاستعانةُ بها على مرضاتِه.

وأما قولُ الناسِ في الشكرِ:

فقالت طائفةٌ: «هو الاعترافُ بنعمةِ المنعمِ على وجهِ الخضوعِ».

وقيل: «الشكرُ هو الثناءُ على المحسنِ بذكرِ إحسانِه إليه، فَشُكْرُ العَبْدِ ثناؤُهُ عليه بذكرِ إحسانِه إليه».

وقيل: «شكرُ النعمةِ مشاهدةُ المِنَّةِ، وحفظُ الحُرْمَةِ، والقيامُ بالخدمةِ».

والشكرُ يتعلقُ بالقلبِ واللِّسانِ والجوارِحِ: فالقلبُ للمعرفةِ والمحبّةِ، واللِّسانُ للثناءِ والحمدِ، والجوارحُ لاستعمالها في طاعةِ المشكورِ وكفِّها عن معاصيه.

والشّكرُ أخصُّ بالأفعالِ، والحمدُ أخصُّ بالأقوالِ، وسببُ الحمدِ أَعَمُّ من سببِ الشكرِ، ومتعلقُ الشكرِ وما به الشكرُ أعمُّ مما به الحمدُ، فما يُحمدُ الربُّ تعالى عليه أعمُّ مما يُشكَر عليه؛ فإنه يُحمد على أسمائِه وصفاتِه وأفعالِه ونعمه، ويُشكر على نعمِه، وما يُحْمَدُ به أخصُّ مما يُشكر به، فإنه يُشْكَر بالقلبِ واللسانِ والجوارحِ، ويحمدُ بالقلبِ واللِّسانِ.

إذا عُرِفَ هذا فَكُلٌّ من الصبرِ والشُّكرِ داخلٌ في حقيقةِ الآخرِ لا يمكنُ وجودُه إلا به، وإنما يُعَبَّر عن أحدِهما باسمه الخاص به باعتبار الأغلب عليه والأظهر منه، وإلا فحقيقةُ الشكر إنّما يلتئم من الصبرِ والإرادةِ والفعلِ، فإن الشكرَ هو العملُ بطاعةِ الله وتركُ معصيتِه، والصّبر أصلُ ذلك. فالصّبرُ على الطاعةِ وعن المعصيةِ هو عينُ الشكرِ، وإذا كان الصَّبرُ مأمورًا به، فأداؤُه هو الشّكرُ.

وهذه مسألةُ الغَنيِّ الشاكرِ والفقيرِ الصّابرِ أيُّهما أفضلُ؟

وللناسِ فيها ثلاثةٌ أقوالٍ: وهي التي حكاها أبو الفرج ابن الجوزي وغيرُه في عمومِ الصبرِ والشكرِ أيهما أفضلُ، وقد احتجت كلٌّ فرقة بِحُجَجٍ وأدلَّةٍ على قولها.

والتحقيقُ أن يقال: أفضلهما أتقاهما لله تعالى؛ فإن فُرِضَ استواؤُهما في التقوى استوَيَا في الفضلِ، فإن اللهَ سبحانه لم يفضل بالفقرِ والغنى كما لم يفضل بالعافيةِ والبلاءِ، وإنما فَضَّلَ بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وقد قال ﷺ: «**لا فضلَ لعربيٍ على عجميٍ، ولا فضل لعجمي على عربي إلَّا بالتقوى، الناسُ من آدم، وآدمُ من ترابٍ**»[(١)].

والتقوى مبنيةٌ على أصلين: الصَّبرِ والشّكرِ، وكلٌّ من الغني والفقيرِ لا بدّ له منهما، فمن كان صبرُه وشكرُه أَتَمَّ كان أفضلَ.

فإن قيل: إن النبي ﷺ **عُرِضت عليه مفاتيحُ كنوزِ الدنيا فَرَدَّها،** وقال: «**بل أشبَعُ يومًا وأجوعُ يومًا**»[(٢)].

---

(١) المسند (٥/ ٤١١).

(٢) الترمذي (٢٣٤٧)، والمسند (٥/ ٢٥٤).

ولم يكن اللهُ ـ سبحانه ـ ليختارَ لرسولِه إلا الأفضل، هذا مع أنَّه لو أخذَ الدنيا لأنفقَها كُلَّها في مرضاةِ اللهِ، ولكان شكرُه بها فوق شكر جميع العالمين.

قيل: احتج بحالِ رسول الله ﷺ كلٌّ واحدةٍ من الطائفتينِ.

والتحقيق: أن الله سبحانه وتعالى جمع له بين المقامين كليهما على أتم الوجوه، وكان سيدَ الأغنياءِ الشاكرينَ وسيدَ الفقراءِ الصابرينَ، فحصلَ له من الصبرِ على الفقرِ ما لم يحصل لأحدٍ سواه، ومن الشكرِ على الغنى ما لم يحصل لغني سواه، ومن تأمل سيرتَه وجدَ الأمرَ كذلك، فكان ﷺ أصبر الخلقِ في مواطنِ الصّبرِ، وأشْكَرَ الخلقِ في مواطنِ الشكرِ، وربه تعالى كَمَّلَ له مراتبَ الكمالِ فجعله في أعلى رُتَبِ الأغنياءِ الشاكرين، وفي أعلى مراتبِ الفقراءِ الصابرين. قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٨].

والمقصود: أنه سبحانه جعل الغنى والفقر ابتلاءً وامتحانًا للشكرِ والصبرِ والصدقِ والكذبِ والإخلاصِ والشركِ.

قال تعالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام:١٦٥].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن:١٥]؛ فجعلَ الدنيا عَرَضًا عاجلًا ومتاعَ غُرورٍ، وجعلَ الآخرةَ دارَ جزاءٍ وثوابٍ، وحَفَّ الدنيا بالشهواتِ وزينها بها.

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران:١٤]، فأخبرَ سبحانه أن هذا الذي زيَّنَ به الدُّنيا من ملاذِّها وشهواتِها وما هو غايةُ أماني طلابِها ومؤثرِيها على الآخرةِ.

ثم ذكرَ سبحانه مَنْ يستحق هذا المتاعَ ومن هم أهله الذين هم أولَى به؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٦-١٧]؛ فأخبر سبحانه أن ما أَعَدَّ لأوليائه المتقين من متاعِ الآخرةِ خيرٌ من متاعِ الدنيا وهو نوعانْ: ثوابٌ يتمتّعون به، وأكبرُ منه وهو رضوانُه عليهم، قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«مالي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا، كمثلِ راكبٍ قال في ظلِّ شجرةٍ في يومٍ صائفٍ، ثم راحَ وتركَها»**[1].

وفي جامع الترمذي[2] **من حديث سهل بن سعد قال:** قال رسول الله ﷺ: **«لو كانت الدنيا تَزِنُ عند اللهِ جناحَ بعَوضةٍ ما سقى كافرًا منها شربَةَ ماءٍ»**. قال الترمذي: حديث صحيحٌ.

وفي صحيح مسلم[3] **من حديث المُسْتَوردِ بنِ شدادٍ** رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«ما الدنيا في الآخرةِ إلا مثل ما يجعلُ أحدُكم أصبعه في اليمِّ؛ فلينظر بم يرجع»**،

---

(١) الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩).

(٢) الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠).

(٣) مسلم (٢٨٥٨).

وأشارَ بالسبابةِ.

وفي الترمذي[1] **من حديثه قال**: كنت مع الرَّكب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السَخْلَةِ الميتة، فقال رسول الله ﷺ: «**أترون هذه هانت على أهلِها حتى ألقوها**». قالوا: ومن هوانِها ألقوها يا رسول الله، قال: «**فالدنيا أهونُ على الله من هذه على أهلها**».

وفي الترمذي[2] **أيضًا من حديث أبي هريرة** ؓ **قال**: قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا مَلعونةٌ، ملعونٌ ما فيها، إلا ذكرَ الله وما والاه، وعالمًا أو متعلِّمًا**».

والحديثان حسنان.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عنها أنها يُفاخِرُ بعضنا بعضًا بها، فيطلبها، ليفخرَ بها على صاحبه، وهذا حالُ كلِّ من طلب شيئًا للمفاخرةِ من مالٍ أو جاهٍ أو قوةٍ أو علمٍ أو زُهْدٍ.

ثم أخبر تعالى عنها أنها تكاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ؛ فيحب كلُّ واحد أن يكثر بَني جنسه في ذلك، ويفرح بأن يرى نفسه أكثرَ من غيره مالًا وولدًا وأن يقال فيه ذلك، وهذا من أعظم ما يُلهي النفوسَ عن الله والدار الآخرةِ؛ كما قال تعالى: **﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾** [التكاثر:١-٤].

ثم أخبر سبحانه عن مصيرِ الدنيا وحقيقتها وأنها بمنزلةِ غيثٍ أعجبَ الكفارَ نباتُه.

---

(١) الترمذي (٢٣٢١)، وابن ماجه (٤١١١)، والسخلة: ولد الشاة من المعز والضأن، انظر اللسان (١١/ ٣٣٢).

(٢) الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢).

والصحيحُ ـ إن شاء الله ـ أنَّ الكفار هم الكفارُ بالله، وذلك عُرْفُ القرآنِ حيث ذُكِروا بهذا النَّعتِ في كلِّ موضعٍ.

ثم ذكر سبحانه عاقبةَ هذا النبات وهو اصفراره ويُبْسُه، وهذا آخرُ الدنيا ومصيرها، ولو ملكها العبد من أوَّلها إلى آخرها فنهايتها ذلك.

ولما وصف سبحانه حقيقة الدنيا وبَيَّنَ غايتها ونهايتَها وانقلابها في الآخرةِ إلى عذابٍ شديدٍ ومغفرةٍ من اللهِ وثوابٍ، أمرَ عبادَه بالمسابقةِ والمبادرةِ إلى ما هو خيرٌ وأبقى، وأن يؤثرَه على الفاني المنقطع المَشُوب بالإنكادِ والتنغيصِ.

ثم أخبر أن ذلك فَضْله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضلِ العظيمِ، وقال تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ [الكهف:٤٥].

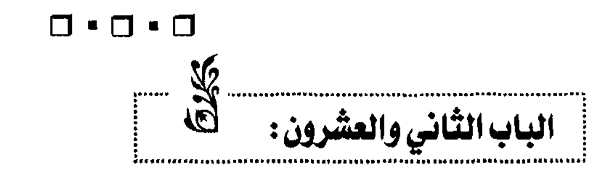
ثم ذكر سبحانه أن المالَ والبنينَ زينةُ الحياةِ الدنيا، وأن الباقياتِ الصالحاتِ وهي: الأعمالُ والأقوالُ الصالحةُ التي بقى ثوابُها ويدوم جزاؤها خيرُ ما يؤمِّلُه العبدُ ويرجو ثوابه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس:٢٤].

وإذا عُرِفَ أنَّ الغِنَى والفقرَ والبلاءَ والعافيةَ فتنةٌ وابتلاءٌ من الله لعبدِه يمتحن بها صبرَه وشكرَه، علم أن الصبرَ والشكرَ مطيتان للإيمانِ لا يُحْمَل إلا عليهما، ولابدَّ لكل مؤمنٍ منهما، وكل منهما في موضعه أفضلُ، فالصبرُ في مواطنِ

الصبرِ أفضلُ، والشكرُ في مواطنِ الشكرِ أفضلُ، هذا إنْ صَحَّ مفارقة كلِّ واحد منهما للآخر، وأما إذا كان الصبرُ مسمى الشُّكر، والشُّكْرُ جزء مسمى الصَّبْر، وكلٌّ منهما حقيقةٌ مركَّبَةٌ من الأمرين معًا كما تقدم بيانه. فالتفضيل بينهما لا يَصِحُّ إلا إذا جُرِّد أحدُهما عن الآخر، وذلك فَرضٌ ذهني يُقدِّرُه الذهنُ ولا يوجدُ في الخارج.

□▪□▪□



في اختلاف الناس في الغني الشاكر والفقير الصابر

أيهما أفضل؟ وما هو الصواب في ذلك؟

هذِه مسألة كثُرَ فيها النِّزاع بين الأغنياءِ والفقراءِ واحتجَّت كلُّ طائفةٍ على الأخرى بما لم يُمكِنْها دَفْعُه من الكتاب والسُّنَّةِ والآثارِ والاعتبارِ، ولذلك يظهرُ للمتأمِّل تكافؤ الطائفتين؛ فإنَّ كلًّا منهما أدلت بحججٍ لا تُدْفَعُ والحقُّ لا يعارِضُ بعضُه بعضًا، بل يجبُ اتِّباع موجب الدليل أين كان.

وقد أكثر النَّاس الكلام في المسألةِ من الجانبينِ، وصنّفوا فيها من الطرفينِ، وتَكَلَّم الفقهاءُ والفقراءُ والأغنياءُ والصوفية وأهلُ الحديث والتفسير لشَمُولِ مَعْناهَا وحقيقتها للنَّاس كلِّهم، وحكَوا عنِ الإمامِ أحمد فيها روايتين ذكرهما أبو الحسن في كتاب «التمام» فقال: مسألةُ الفقيرِ أفضلُ من الغني الشاكر في أَصَح الروايتين. وفيه رواية ثانية: الغني الشاكر أفضل. وبها قال جماعة منهم ابن قتيبة.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه المسألة؛ فقال: قَدْ تَنَازعَ كثيرٌ منَ المتأخرين في الغني الشَّاكر والفقير الصَّابر أيهما أفضل؛ فرجَّح هذا طائفةٌ من العلماءِ والعُبَّادِ، ورجَّح هذا طائفةٌ أُخْرَى منَ العُلَماءِ والعُبَّاد، وحكي في ذلك عن الإمام أحمد روايتان.

وأمَّا الصَّحابة والتَّابعون رضي الله عنهم فلمْ يُنقل عن أحدٍ منهم تفضيل أحدِ الصِّنفين على الآخرِ.

وقَدْ قالتْ طائفةٌ ثالثةٌ: ليس لأحدِهما على الأُخرَى فضيلةٌ إلَّا بالتَّقوى؛ فأيُّهما أعظم إيمانًا وتقوى كان أفضل، فإن استويَا في ذلك استويا في الفضيلةِ.

وقال: هذا أصحُّ الأقوال؛ لأنَّ نصوصَ الكتابِ والسُّنَّةِ إنَّما تُفَضِّل بالإيمانِ والتَّقوى، وقَدْ قَالَ تعالَى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء:١٣٥]، وقَدْ كانَ في الأنبياءِ والسابقينَ الأوَّلينَ منَ الأغنياءِ من هو أفضل من أكثر الفقراءِ، وكان فيهمْ من الفقراءِ من هو أفضلُ من أكثر الأغنياءِ، والكاملونَ يقومونَ بالمقامين فيقومونَ بالشُّكرِ والصَّبرِ عَلَى التَّمام كحال نبينا ﷺ، وحالَ أَبِي بكر وعمر رضي الله عنهما.

والتَّحقيق في هذا الباب: أنه لا ينظرُ إِلَى الألفاظِ المحدثة، بل يَنْظُرُ إلى ما جاء به الكتاب والسُّنَّة من الأسماءِ والمعانِي، والله قد جعل وصف أوليائه الإيمان والتقوى، فمن كان نصيبه من ذلك أعظم كان أفضل، والأغنياء بها سوى ذلك. والله أعلم.

□ ▪ □ ▪ □

الباب الثالث والعشرون:

في ذكرِ ما احتجَّت به الفقراءُ من الكتابِ والسُّنَّةِ والآثارِ والاعتبارِ

قالت الفقراءُ: لم يذكر الله سبحانه الغِنَى والمالَ في القرآنِ إلا على أحدِ وجوهٍ:

□ **الأول: على وجهِ الذَّمِّ**: كقوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ [العلق:٦-٧].

□ **الوجه الثاني: أنْ يذكره على وجه الابتلاءِ والامتحانِ**: كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ [التغابن:١٥].

□ **الوجه الثالث**: إخباره سبحانه وتعالى أن الأموالَ والأولادَ لا تقرِّبُ إليه شيئًا: وإنما يقربُ إليه الإيمانُ والعملُ الصالحُ كما قال: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ:٣٧].

□ **الوجه الرابع**: إخباره أن الدنيا والغِنَى والمالَ إنما جعلها متعة لمن لا نصيبَ له في الآخرةِ: وأن الآخرةَ جعلها للمتقين فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴾ [طه:١٣١]، وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ بقوله لعمر: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة**»[1].

□ **الوجه الخامس**: أنه سبحانه لم يذكر المُترفينَ وأصحابَ الثروةِ إلا بالذم: كقوله: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴾ [الواقعة:٤٥].

---

(١) البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩).

□ **الوجه السادس:** أنه سبحانه ذَمَّ مُحبَّ المالِ: فقال: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:١٩-٢٠]، فذمَّهم بحبِّ المالِ وعَيَّرَهم به.

□ **الوجه السابع:** أنه سبحانه ذم متمني الدنيا والغِنَى والسعة فيها: ومدحَ من أنكرَ عليهم وخالَفهم، فقال تعالى عن أغنى أهلِ زمانه ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ [القصص:٧٩-٨٠].

□ **الوجه الثامن:** أنه سبحانه أنكر على من ظنَّ أن التفضيلَ يكون بالمالِ الذي يحتاج إليه لإقامةِ الملك: فكيف بما هو زيادةٌ وفضله؟ فقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧].

□ **الوجه التاسع:** أنه سبحانه أخبرَ أن التكاثرَ في جمعِ المالِ وغيره ألهى الناسَ وشغلهم عن الآخرةِ والاستعدادِ لها: وتوعدهم على ذلك فقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:١-٤].

وفي صحيح مسلم[1] من حديث عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه **أنه قال:** انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، قال: **«يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل**

(١) مسلم (٢٩٥٨).

لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت».

فالله تعالى حَمى أولياءَه عن الدنيا، وصانهم عنها، ورَغبَ بهم عنها تكريمًا لهم، وتطهيرًا عن أدناسِها، ورِفْعَةً من دناءتِها، وذمَّها لهم، وأخبرهم بهوانها عليه وسُقُوط قَدْرِها عنده، وأعْلَمَهم أن بسطها فتنةٌ وأنه سببُ الطُّغيانِ والفَسَادِ في الأرضِ وإلهاء التكاثر بها عن طلبِ الآخرةِ، وأنها متاعُ الغرورِ، وَذَمَّ مُحِبِّيهَا ومُؤثِرِيها.

وأخبر أن من أرادها أو أراد زينتَها وحرثَها فليس له في الآخرةِ من نصيبٍ، وأخبر أنَّ بسطَها فتنةٌ وابتلاءٌ لا كرامةٌ ومحبةٌ، وأن إمدادَ أهلها بها ليس مسارعةً لهم في الخيرات، وأنها لا تُقَرِّبُ إليه ولا تُزْلِفُ لديه، وأنه لولا تتابُعُ الناس في الكفر لأعطى الكُفَّار منها فوق مُناهُم، ووسَّعها عليهم أعظم التوْسِعة بحيث يجعلُ سقوفَ بيوتهم وأبوابَهُم ومحارجَهم وسُرُرهم كلَّها من فِضَّةٍ، وأخبر أنه زَيَّنها لأعدائه ولضُعفَاءِ العُقُول الذين لا نصيبَ لهم في الآخرة، ونهى رسولَه عن مَدِّ عَينَيْه إليها وإلى ما مَتَّعَ به أهلَها، وذم من أذهبَ طيباتِه فيها واستمتع بها.

وقال لنبيِّه: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر:٣] وفي هذا تعزيةٌ لما منعه أولياءَه من التمتّعِ بالدنيا وكثرةِ الأكل فيها، وتأديبٌ لمن بسط له فيها ألا يطغى فيها ولا يعطي نفسه شهواتها ولا يَتَمَتَّع بها.

وذَمَّ سبحانه مُحِبِّيها المفتخرين بها، المكاثرين بها، الظَّانين أنَّ الفضلَ والكرامةَ في سَعَتِها وبسطتِهَا.

وأخبر سبحانه عن فنائها وسُرعةِ انقضائها وأنه إذا عاينَ العبدُ الآخرةَ فكأنه لَبِثَ فيها ساعةً من نهار أو يومًا أو بعض يوم، ونهى سبحانه عبادَه أن يغتروا بها.

وأخبرهم أنها لهو ولعبٌ وزينةٌ وتفاخُرٌ وتكاثُرٌ ومتاعُ غرورٍ وطريقٌ ومعبرٌ إلى الآخرة، وأنها عِوَضٌ عاجِلٌ لا بقاءَ له، ولم يَذْكُر مريدَها بخيرٍ قَطْ بل حيث ذَكَره ذَمَّه. وأخبر أن مُرِيدَها مخالفٌ لربِّه تعالى في إرادته، فالله يريد شيئًا ومريدُ الدنيا يريد خلافه، فهو مخالفٌ لربه تعالى بنفس إرادته، وكفى بهذا بُعْدًا عنه سبحانه، وأخبر سبحانه عن أهلِ النَّارِ أنهم إنما دخلوها بسببِ غرور الدنيا وأمانِيها لهم.

قالوا: وهذا كلُّه تزهيدٌ لهم منه سبحانه فيها وترغيبٌ في التقلُّلِ منها ما أمكن. قالوا: وقد عَرَضَها سبحانه وعرضَ مفاتيح كنوزِها على أحبِّ الخلقِ إليه وأكرمِهم عليه عبده ورسوله محمدٍ ﷺ فلم يردْها ولم يَخْتَرْها، ولو آثرها وأرادَها لكان أشكرَ الخلقِ بما أخذه منها، وأنفقه كلَّه في مرضاةِ الله وسبيله قطعًا، بل اختار التقلُّلَ منها وصَبرَ على شِدَّةِ العيش فيها.

وعرض عليه مفاتيح كنوزِ الدنيا فلم يأخذها، وقال ﷺ: «**بل أجوعُ يومًا وأشبعُ يومًا فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك**».

وسأل ربَّه أن يجعل رزقَ أهلِه قوتًا كما في الصحيحين[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اللهم اجعل رزق آل محمدٍ قوتًا**». وفيهما[2] عنه قال: «**والذي نفس أبي هريرة بيده ما شبع نَبيُّ الله وأهلُه ثلاثةَ أيامٍ تباعًا من خبز حنطةٍ حتى فارق الدنيا**».

(١) البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥).

(٢) البخاري (٥٤١٤)، ومسلم (٢٩٧٦)، والحنطة: البُرُّ، والبرّ هو القمح. انظر: اللسان (مادة: حنط) و(مادة: برر).

وفي صحيح البخاري[١] **عن أنس** ﷺ: «ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغِيفًا مُرَقَّقًا ولا شاة سَميطًا قط حتى لَحِقَ بِرَبِّه». وفي صحيحه[٢] أيضًا عنه قال: **«خرج رسول الله ﷺ ولم يشبع من خبزِ الشعير».**

وفي الصحيحين[٣] **عن عائشة** ﷺ: «ما شبع آل محمد منذ قَدِم المدينة من طعامِ البُرِّ ثلاث ليال تباعًا حتى قُبِضَ».

وفي صحيح مسلم[٤] **عن عمر** ﷺ: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يَظَلُّ اليوم ما يَجِدُ دَقْلا يملأ بَطْنَه».

وفي صحيح البخاري[٥] **عن أنس** ﷺ **قال:** «لقد رَهَن رسولُ الله ﷺ دِرْعَه بشعير، ولقد سمعته يقول: ما أصبح لآل محمدٍ صاعٌ ولا أمسى، وإنهم لتسعة أبيات».

وفي الترمذي[٦] **عن ابن عباس** ﷺ **قال:** «كان النبي ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويًا وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير».

وفيه أيضًا[٧] **عن أنس عنه** ﷺ: «لقد أُخِفْتُ في الله وما يخاف أحدٌ، ولقد أُوذيت في الله وما يؤذي أحدٌ، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال من طعام يأكله ذو كبدٍ إلا شيءٌ يواريه إِبْطُ بِلالِ». الحديثان صحيحان.

---

(١) البخاري (٥٤٢١)، الشاة السميط: يعني المشوية.
(٢) البخاري (٥٤١٤).
(٣) البخاري (٥٤١٦)، ومسلم (٢٩٧٠).
(٤) مسلم (٢٩٧٨)، والدقل: رديء التمر، انظر النهاية (٢/ ١٢٧).
(٥) البخاري (٢٥٠٨).
(٦) الترمذي (٢٣٦٠)، وابن ماجه (٣٣٤٧).
(٧) الترمذي (٢٤٧٢).

قالوا: ولو كان الغِنَى مع الشُّكْرِ أفضل من الفقر مع الصبر لاختاره رسولُ الله ﷺ إذ عرضت عليه الدنيا، ولأمره ربُّه أن يسأله إياه كما أمره أن يسأله زيادةَ العلم، ولو يكن رسولُ الله ﷺ ليختار إلا ما اختاره الله له، ولم يكن الله ليختارَ له إلا الأفضل، إذ كان أفضلَ خلقِه وأكملَهم.

قالوا: وقد أخبر النبيُّ ﷺ أن خيرَ الرزقِ ما كان بِقَدْرِ كفايةِ العبدِ فلا يعوزُه ما يَضُرُّه ولا يَفْضُلُ عنه ما يطغيه ويلهيه.

عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما طلعت شمسٌ قطُّ إلا بُعِث بجنبيها ملكان يناديان يُسْمعان أهلَ الأرضِ إلا الثقلين: يا أيّها الناس هَلُمّوا إلى ربكم فإن ما قَلَّ وكفى خَيْرٌ مما كَثُرَ وألهى، ولا آبت شَمْسٌ قَطُّ إلا بعث جنبيها ملكان يناديان يُسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم أعطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وأعط مُمْسِكًا تَلَفًا**»[1].

قالوا: وقد أخبرهم النَّبيُّ ﷺ أن أقرَبَهم منه مجْلِسًا ذوو التَّقَلُّلِ من الدّنيا الذين لم يستكثروا منها.

قالوا: وقد غَبطَ النَّبيُّ ﷺ من كان عيشُه كفافًا وأخبر بفلاحِه.

وعن فضالة بن عبيد أنه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «**طوبى لمن هُدِي إلى الإسلام، وكان عيشُه كفافًا وقَنعَ**»[2].

قالوا: ولو لم يكن في التَّقَلُّلِ إلا خِفَّةُ الحسابِ لكفى به فَضْلًا على الغِنَى.

قالوا: وقد شهد النَّبِيُّ ﷺ لأصحابه أنهم يوم فقرهم وفاقَتِهم خيرٌ منهم يومَ

(١) المسند (٥/ ١٩٧).

(٢) المسند (٦/ ١٩).

غناهم وبسط الدنيا عليهم.

قالوا: ولم يكن في الغنى والمال إلا أنه فتنة، وقَلَّ من سَلِمَ من إصابتها له وتأثيرها في دينه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٢٨]. وفي الترمذي[١] من حديث كعب بن عياض قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ لكلِّ أمَّةٍ فتنةً، وفتنةُ أمّتي المال**». قال: هذا حديث حسن صحيح.

قالوا: والمال يدعو إلى النَّارِ، والفقرُ يدعو إلى الجنة.

قالوا: وحقُّ الغِنَى أعظم من أن يقوم العبد بشكره.

وفي صحيح مسلم[٢] عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا ابن آدم إنَّك إن تبذُل الفَضْلَ خيرٌ لك، وإن تمسكه شَرٌّ لك، ولا تلامُ على كفافٍ وابدأ بمن تعول، واليَدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى**».

وفي صحيحه[٣] أيضًا من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد ﷺ قال: «بينما نحن في سفرٍ مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجلٌ على راحلةٍ له فجعلَ يضربُ يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله ﷺ: «**من كان مَعه فَضْلٌ من ظَهرٍ فَلَيعُد به على من لا ظهرَ له، ومن كان عنده فَضْلٌ من زادٍ فليَعد به على من لا زادَ له**». قال: فذكر من أصناف المالِ ما ذكر حتى ظَنَنَّا أنه لا حقَّ لأحدٍ مِنَّا في فَضْلٍ».

قالوا: فهذا موضعُ النظرِ في تفضيل الغني الشاكرِ ببذل الفضلِ كلِّه، وأمَّا غَنِيٌّ يُمَتَّعُ بأنواعِ الفَضْلِ ويشكرُ بالواجِبِ وبعض المستحبِ فكيف يُفَضَّلُ على فقيرٍ صابرٍ راضٍ عن الله في فقره؟

---

(١) الترمذي (٢٣٣٦).

(٢) مسلم (١٠٣٦).

(٣) مسلم (١٠٣٦).

قالوا: وقد أقسم رسولُ الله ﷺ لأصحابه وهم أئمة الشاكرين: أنه لا يخافُ عليهم الفقرَ، وإنما يخافُ عليهم الغنى، ففي الصحيحين[1] من حديث عمرو ابن عوف وكان شهد بدرًا أن رسولَ الله ﷺ بعث أبا عبيدة بنَ الجراح إلى البَحْرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله صَالَحَ أهل البحرين، وأَمَّرَ عليهم العلاءَ بن الحضرمي؛ فقدم أبو عبيدة بمالٍ من البحرين؛ فسمعت الأنصارُ بقدوم أبي عبيدة؛ فوافوا صلاةَ الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلَّى رسول الله ﷺ انصرفَ؛ فَتَعَرَّضوا له، فتبسَّم رسولُ الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «**أظنكم سمعتم أن أبا عبيدَةَ قدِم بشيءٍ من البحرين**». فقالوا: أجل يا رسول الله. قال: «**أبشروا وأمّلوا ما يَسرُّكم فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسطَ عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم؛ فتنافسوا فيها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم**».

قالوا: وقد مَرَّ على النبي ﷺ فقيرٌ وغني فقال عن الفقير: «**هذا خَيرٌ من ملءِ الأرضِ مثل هذا**»[2].

وروى البخاري[3] في صحيحه عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: «مرَّ رجل على رسول الله ﷺ فقال: «**ما تقولون في هذا؟**» فقالوا: حَرِيٌّ إن خَطَب أن يُنْكَح، وإن شَفَعَ أن يُشَفَّع، وإن قال أن يُسْمع. قال: ثم سكت، فَمَرَّ رجل من فقراء المسلمين فقال: «**ما تقولون في هذا؟**» قالوا: حرِيٌّ إن خطب أن لا يُنكح، وإن شفع أن لا يُشَفَّع، وإن قال أن لا يُسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خَيْرٌ من ملءِ الأرض مثلِ هذا**».

---

(١) البخاري (٦٤٢٥)، ومسلم (٢٩٦١).
(٢) البخاري (٥٠٩١).
(٣) البخاري (٥٠٩١).

وقد بشَّرَ رسولُ الله ﷺ الفقراءَ الصابرينَ بما لم يُبشِّر به الأغنياءَ، ففي الترمذي[1] من حديثِ فُضالة بن عبيد: «أن رسول الله ﷺ كان إذا صلَّى بالناس يَخِرّ رجالٌ من قامَتِهم في الصلاة من الخصاصة ـ وهم أصحابُ الصُّفَّةِ ـ حتى يقولُ الأعرابُ: هؤلاء مجانين. فإذا صلَّى رسول الله ﷺ انصرف إليهم وقال: «**لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقةً وحاجةً**». ـ قال فضالة: وأنا يومئذٍ مع رسول الله ﷺ.

وبشَّرهم بسَبقِهم الأغنياءَ إلى الجنة. وقد اختلفت الرواياتُ في مُدَّةِ هذا السَّبْقِ؛ ففي صحيح مسلم[2] عن عبد الله بن عمرو: «أنه جاءه ثلاثةُ نَفَرٍ فقالوا: يا أبا محمد، والله ما نقدر على شيء، لا نفقة ولا دابة ولا متاع، فقال لهم: ما شئتم، إن شئتم رفعتم إلينا فأعطيناكم ما يَسَّرَ الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمرَكم للسُّلطان، وإن شئتم صبرتم فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن فقراءَ المهاجرينَ يسبقونَ الأغنياءَ يومَ القيامةِ بأربعينَ خريفًا**». قالوا: نصبِر، ولا نسألُ شيئًا».

وفي الترمذي[3] أيضًا من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «فقراء المهاجرين يدخلون الجنَّة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة». وهو حديثٌ حسنٌ.

قالوا: ويكفي في فضلِ الفقير أن عامَّةَ أهلِ الجنَّةِ الفقراءُ، وعامَّة أهلِ النارِ الأغنياءُ.

وفي صحيح البخاري[4] عن أبي رجاء قال: جاء عمران بن حصين رضي الله عنه إلى امرأته من عند رسول الله ﷺ فقالت: حدثنا ما سمعت من النبي ﷺ، فقال:

---

(1) الترمذي (٢٣٦٨).

(2) مسلم (٢٩٧٩).

(3) الترمذي (٢٣٥١)، وأبو داود (٣٦٦٦).

(4) البخاري (٣٢٤١).

إنه ليس من حديث، فلم تدعه ـ أو قال: فأغضبته ـ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**نظرتُ في الجنةِ فرأيتُ أكثرَ أهلِها الفقراءَ، ونظرتُ في النارِ فرأيتُ أكثرَ أهلها النساءَ**».

وفي الصحيحين[1] **من حديث أسامة بن زيد:** أن رسول الله ﷺ قال: «**قمتُ على بابِ الجنةِ فإذا عامَّةُ من دَخَلَها المساكينُ، وقمتُ على بابِ النارِ فإذا عامَّةُ من دَخَلَها النِّساءُ**».

قالوا: وقد صرَّح رسولُ الله ﷺ في تفضيلِ الفقراءِ في غيرِ حديثٍ؛ فمنها: ما تقدم من حديثِ سهلِ بن سَعد.

قالوا: والذي يفصل بيننا في هذه المسألة ويشفي العليل: أن الفقر يُوَفِّر أجْرَ صاحبِه ومنزلتَه عند الله، والغَنِيّ ولو شَكَر؛ فإن ما ناله في الدنيا بغناه يحسب عليه من ثوابه يومَ القيامةِ، وإن تناولُه بأحلِّ وجهٍ، فقليلُ الفَضْلِ في الدنيا ناقِصٌ من كثيرِ الآخرة.

وفي صحيح مسلم[2] **من حديث عبد الله بن عمرو** أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من غازيةٍ تغزو في سبيل الله فيصيبون الغَنِيمَة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة، ويبقى لهم الثُلُث، وإن لم يصيبوا غنيمةً تم لهم أجرُهم**».

وفي الصحيحين[3] **عن خَبَّاب بن الأرَتِّ** ﷺ **قال:** «هاجرنا مع رسولِ الله ﷺ نَلْتَمِسُ وَجْهَ الله؛ فَوَقعَ أجرُنا على الله؛ فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئًا؛ منهم مصعب بن عمير ﷺ قُتل يومَ أحدٍ وترك بُرْدَةً فكُنَّا إذا غَطَّينا بها رأسَه

(١) البخاري (٥١٩٦)، ومسلم (٢٧٣٦).
(٢) مسلم (١٩٠٦).
(٣) البخاري (١٢٧٦)، ومسلم (٩٤٠).

بدت رِجلاهُ وإذا غَطّينا رجلَيه بدا رأسُه، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نُغَطِّي رأسه ونجعل على رجليه شيئًا من الإذخر[1]، ومنّا من أينعت له ثمرتُه فهو يهدبُها».

قالوا: وقد صرَّحَ ساداتُ الأغنياءِ بأنهم ابتلوا بالضَّراءِ فَصَبَرُوا، وابتلوا بالسَّراءِ فلم يصبِروا.

قالوا: وإنما كان حبُّ الدنيا رأس الخطايا، ومُفسِدًا للدين من وجوه:

□ **أحدها:** أن حُبَّها يقتضي تعظيمَها وهي حقيرةٌ عند الله، ومن أكبرِ الذّنوب تعظيمُ ما حَقَّرَ الله.

□ **وثانيها:** أن الله لَعَنَها ومَقَتَها وأبغضها إلا ما كان له فيها، ومن أحبَّ ما لَعَنَهُ الله ومَقَته وأبْغَضَهُ فقد تَعَرَّض للفتنةِ ومَقْتِهِ وغَضَبِهِ.

□ **وثالثها:** أنه إذا أحبَّها صَيَّرها غايتَه وتوسَّلَ إليها بالأعمال التي جعلَها الله وسائِلَ إليه وإلى الدار الآخرة، فَعَكَسَ الأمرَ، وقَلَبَ الحِكْمَةَ فانتكسَ قلبُه، وانعكس سَيْرُه إلى وراءٍ.

□ **ورابعها:** أن محبَّتَها تَعْتَرِضُ بين العبدِ وبين فِعْلِ ما يَعودُ عليه نَفْعُهُ في الآخرة لاشتغالِه عنه بِمَحبوبِهِ.

والناسُ ها هنا مراتب:

- **فمنهم:** من يَشْغَلُه محبوبُه عن الإيمانِ وشرائعِه.
- **ومنهم:** من يشغلُه عن الواجباتِ التي تَجِبُ عليه لله؛ ولخلقه؛ فلا يقومُ بها ظاهرًا ولا باطنًا.

---

(١) **الإذخر:** حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب. انظر: النهاية (١/ ٣٣).

- ومنهم: من يشغلُه حُبُّها عن كثيرٍ من الواجباتِ.
- ومنهم: من يَشْغله عن واجبٍ يعارِضُ تحصيلها وإن قام بغيرِه.
- ومنهم: من يشغلُه عن القيامِ بالواجب في الوقْتِ الذي يَنْبغي على الوَجْهِ الذي يَنْبَغِي، فيُفَرّط في وقتِه وفي حقوقه.
- ومنهم: من يشغلُه عن عبودية قلبِه في الواجب وتَفريغه لله عند أدائه فيؤدِّيه ظاهرًا لا باطنًا.

وأَقَلُّ درجاتِ حُبِّها أن يَشْغَلَ عن سعادةِ العَبْدِ وهو تَفْرِيغُ القَلْبِ لِحُبِّ الله، ولسانه لذكره.

◻ **وخامسها**: أنَّ محبَّتَها تَجْعَلُها أَكْبَرَ هَمِّ العَبْدِ، وقد روى الترمذيُّ[1] من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كانت الآخرةُ أكبرَ هَمِّه جَعَلَ الله غناه في قلبه وَجَمَعَ له شَمْلَه، وأتته الدنيا وهي راغِمَةٌ، ومن كانت الدّنيا أكْبَرَ هَمِّه جعل الله فَقْرَه بين عينيه وفَرَّقَ عليه شَمْلَه، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما قدِّر له**».

◻ **وسادسها**: أنَّ مُحِبَّها أَشَدُّ الناسِ عَذَابًا بها، وهو مُعَذَّبٌ في دوره الثلاثِ؛ يُعذَّبُ في الدنيا بتحصيلها والسَّعي فيها ومنازعةِ أهلِها، وفي دارِ البرزخ بفواتها والحسرةِ عليها وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجهٍ لا يرجو اجتماعه به أبدًا، ولم يحصُل له هناك محبوبٌ يُعَوِّضُه عنه، فهذا أشدُّ الناس عذابًا في قَبْرِه، يعمل الهَمُّ والغَمُّ والحَزَنُ والحَسْرَةُ في روحه ما تَعْمَلُ الديدانُ وهوامُ الأرضِ في جِسْمِهِ.

---

(١) الترمذي (٢٤٦٥).

□ **وسابعها**: أن عاشقها ومُحِبَّها الذي يؤثِرُها على الآخرة من أَسْفَهِ الخَلْقِ وأقَلِّهم عَقْلًا، إذ آثَرَ الخيالَ على الحقيقةِ، والمَنَامَ على اليَقظَةِ، والظِّلَّ الزَّائِلَ على النّعيمِ الدّائمِ، والدّارَ الفانيةَ على الدارِ الباقيةِ.

قال يونس بن عبد الأعلى: «ما شَبَّهْتُ الدّنيا إلا كَرَجُلٍ نامَ فرأى في منامه ما يكره وما يحب؛ فبينما هو كذلك انتبه».

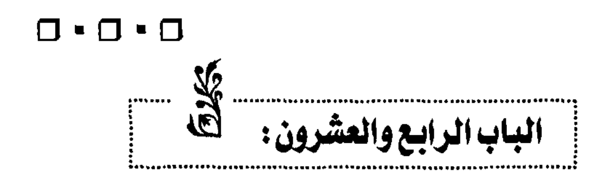
أَرى أشقياءَ النـاسِ لا يـسأمُونها ... علـى أنهـم فيهــا عُــراةٌ وجُـوَّعُ
أراهـا وإِنْ كانــت تُحَـبُّ فـإنَّهــا ... سَحَابة صـيفٍ عــن قليـلٍ تَقـشَّعُ

أشبه الأشياءِ بالدنيا الظلُّ، تحسب له حقيقة ثابتة وهو في تقلّص وانقباض فتتبعه لتدركه فلا تلحقه. وأشبه الأشياء بهذا السراب ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور:٣٩]. وأشبه الأشياء بها المنام يرى فيه العبد ما يحب وما يكره؛ فإذا استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له.

وأشبَه الأشياءِ بِهَا عجوزٌ شَوهاءُ قَبيحةُ المنظَرِ والمَخْبَرِ، غَدَّارَةٌ بالأزواجِ تَزَيَّنَت للخُطّابِ بِكُلِّ زينةٍ، وسَتَرت كُلَّ قبيحٍ فاغتر بها من لم يجاوز بصرُه ظاهرَها فطَلَبَ النكاح، فقالت: لا مَهْرَ إلا نقد الآخرةِ فإننا ضُرّتان واجتماعُنا غير مأذونٍ فيه ولا مُستبَاحٍ، فآثر الخُطّاب العاجلةَ وقالوا: ما على من واصل حبيبته من جناحٍ، فلما كشفَ قِنَاعها وَحَلَّ إزارَها إذا كُلُّ آفةٍ وبَلَيَةٍ، فمنهم من طَلَّق واستراح، ومنهم من اختار المُقام فما استتمت ليلةُ عُرْسِه إلا بالعويلِ والصِّيَاح، تالله لقد أَذَّن مؤذنها على رؤوس الخلائق بحيِّ على غير الفلاح، فقامَ المجتهدون والمُصَلّون لها فواصلوا في طَلَبِها الغُدُوَّ بالرَّواحِ، وَسَروا ليلهم فلم يَحمد القَوْمُ

السُرى عند الصَّباحِ، طاروا في صيدها فما رَجَع أحَدٌ منهم إلا وهو مكسورُ الجناحِ، فوقعوا في شَبَكَتِها فأسلمتهم للذَّبَّاحِ.

□ ▪ □ ▪ □



الباب الرابع والعشرون:

في ذكر ما احتجت به الأغنياء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

قالت الأغنياء: لقد أجلبتم علينا أيُّها الفقراءُ بِخَيلِ الأَدِلَّةَ ورَجلِها، ونحن نعلم أن عندكم مثلها وأكثر من مثلها، ولكنْ توسَّطتم بين التَّطويل والاختصار، وظننتم أنّها حكمت لكم بالفَضل دون ذوي اليَسارِ، ونحن نحاكمكم إلى ما حاكمتمونا إليه، ونعرضُ بضاعَتها على من عرضتم بضاعتكم عليه، ونضع أدلَّتنا وأدلَّتكم في ميزان الشّرعِ والعقلِ الذي لا يعزل، فحينئذ يتبين لنا ولكم الفاضلُ من المفضول.

ولكن أخرجوا من بيننا من تَشَبَّه بالقراء الصّادقين الصّابرين، ولَبِسَ لباسَهم على قلبِ أحرصِ الناس على الدنيا، وأشحِّهم عليها، وأبعدهم من الفقرِ والصبرِ من كل مُظهِرٍ للفقر مُبطنٍ للحرص غافلٍ عن ربِّه متبعٍ لهواه مُفَرِّطٍ في أمر معادِه.

أو فقير حاجَه فقرُه اضطرارًا لا اختيارًا فزهده زهد إفلاسٍ لا زهد رغبةٍ في الله والدار الآخرة.

أو فقير يشكو ربّه بلسانِ قالِه وحالِه غير راضٍ عن ربّه في فقره، بل إن أعطيَ رَضِيَ وإن مُنِعَ سَخِطَ، شديد اللَّهف على الدنيا والحسرة عليها.

إذا عُرِفَ هذا، فقد مدح الله سبحانه في كتابِه أعمالًا، وأثنى على أصحابِها، ولا تحصل إلا بالغِنى؛ كالزكاة والإنفاق في وجوهِ البِرِّ، والجهادِ في سبيل الله بالمالِ، وتجهيز الغُزاةِ، وإعانة المحاويج، وفكِّ الرِّقابِ، والإطعام في زَمَنِ المَسْغَبَةِ.

وأين يقع صبرُ الفقير مِنْ فرحةِ الملهوف المضطرِ المشرفِ على الهلاك إذا أعانه الغنيُّ ونصرَه على فقرِه ومَخْمَصَتِه؟

وأين يقع صبرُه من نَفْعِ الغني بماله في نصرةِ دين الله وإعلاء كلمته وكسرِ أعدائه؟

وأين صبرُ أبي ذر على فقره إلى شكر الصديق ربّه وشرائه المعذّبين في الله وإعتاقهم، وإنفاقِه على نصرة الإسلامِ حين قال النَّبِيُّ ﷺ: «**ما نفعني مالُ أحدٍ ما نفعني مالُ أبي بكر**»[1]؟

وأين يقعُ صبرُ أهلِ الصُّفَّةِ من إنفاقِ عثمان بن عفّان تلك النفقاتِ العظيمةِ التي قال له رسول الله ﷺ ـ في بعضها ـ: «**ما ضَرَّ عثمانُ ما فَعل بعدم اليومِ**»[2].

وإذا تأملتم القرآن، وجدتم الثناءَ فيه على المنفقين أضعاف الثناء على الفقراءِ الصَابرين.

وقد شهد رسولُ الله ﷺ بأن اليَدَ العُليا خيرٌ من اليَدِ السُّفلى، وفسر اليد العليا بالمُعطية، والسُّفلى بالسائلةِ.

وقد عَدَّد الله سُبحانه على رسوله ﷺ من نعمه أن أغناه بعد فقرِه، وكان غناه هو الحالة التي نَقَلُه إليها، وفقره الحالة التي نَقَله منها، وهو سبحانه كان ينقُلُه من الشيء إلى ما هو خيرٌ منه.

---

(١) الترمذي (٣٦٦١)، وابن ماجه (٩٤).
(٢) الترمذي (٣٧٠١)، والمسند (٥/ ٦٣).

قالوا: والغنى مع الشكر زيادةٌ فَضْلٍ ورحمةٍ: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥].

قالوا: والأغنياء الشاكرون سَبَبٌ لطاعةِ الفقراءِ الصابرين؛ لتقويتهم إياهم بالصَّدقةِ عليهم، والإحسان إليهم، وإعانتهم على طاعتهم؛ فلهم نصيبٌ وافرٌ من أجور الفقراء.

قالوا: ولو لم يكن للغنيِّ الشاكِرِ إلا فَضْلُ الصَّدَقةِ التي لَمَّا تفاخرت الأعمالُ كان الفَخْرُ لها عليهن.

قالوا: والصدقة وقايةٌ بين العبدِ وبين النار.

وقال يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن عقبة يرفعه: «كل امرئٍ في ظلِّ صدقتِه حتى يُقضى بين الناس».

وفي حديث معاذ عن النبي ﷺ: «الصَّدقةُ تطفئُ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النَّارَ»[1].

وفي الصحيحين[2] من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا تصدَّق العبدُ من كسبٍ طَيبٍ، ولا يقبل الله إلا طَيبًا، أَخَذَها الله بيمينه؛ فيربيها لأحدكم كما يُربي أحدُكم فُلُوّه أو فَصيله حتى تكون مثل الجبلِ العظيم».

وإذا كان الله سبحانه قد غفر لمن سقى كَلْبًا على شدةِ ظمئه فكيف بمن سقى العِطاش، وأشبَع الجِياع، وكسا العراة من المسلمين؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «اتقوا النَّار ولو بِشِقِّ تَمرةٍ، فإن لم تجدوا فبكلمةٍ طيبة»[3]؛ فجعل الكَلِمَ الطَيبَ

---

(١) الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

(٢) البخاري (٧٤٣٠)، ومسلم (١٠١٤).

(٣) البخاري (٦٥٦٣)، ومسلم (١٠١٦).

عِوَضًا عن الصَدَقَةِ لمن لا يقدر عليها.

قالوا: وأينَ لذةُ الصدقةِ والإحسانِ، وتفريحهما القلب، وتقويتهما إياه، وما يُلْقي الله سُبحانه للمُتَصَدّقين من المحَبَّةِ والتّعظيمِ في قلوب عبادِهِ والدعاء لهم والثناء عليهم، وإدخال المَسَرّات عليهم، من أجر الصبرِ على الفقر؟ نعم إن له لأجرًا عظيمًا لكن الأجرَ درجات عند الله.

قالوا: وقد ذكر الله سبحانه أصنافَ السعداء؛ فبدأ بالمتصدقين أولهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد:١٨].

قالوا: وفي الصَّدقةِ فوائدُ ومنافعُ لا يحصيها إلا الله؛ فمنها: أنّها تقي مصارعَ السوءِ، وتدفعُ البلاءَ حتى إنّها لتدفع عن الظالم.

قالوا: ولو لم يكن في النَّفْعِ والإحسان إلا أنَّه صِفَةُ الله ـ وهو سبحانه يُحِبّ من اتَّصَفَ بموجبِ صفاته وآثارها.

قالوا: ويكفي في فضلِ النفعِ المتعدي بالمالِ أن الجزاءَ عليه من جِنْسِ العمل؛ فمن كسا مؤمنًا كساه الله من حُلَلِ الجنَّةِ، ومن أشبَع جائِعًا أشبعه الله من ثمارِ الجنة، ومن سقى ظمآنًا سقاه الله من شرابِ الجنة.

قالوا: وقد جعل رسولُ الله ﷺ: **«الطاعِمُ الشاكرُ بمنزلةِ الصّائم الصَّابرِ»**[1]، ومعلوم أنه إذا تعدى شكره إلى الإحسان إلى الغير ازداد درجةً أخرى.

قالوا: وفي الصحيحين[2] من حديث الزهري، عن سالم، عن أبيه قال: قال

(١) البخاري (٧٥٢٩)، ومسلم (٨١٥).
(٢) البخاري (٥٠٢٦)، ومسلم (٨١٥).

رسول الله ﷺ: «**لا حسدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاهُ الله القرآن فهو يقوم به آناءَ الليل والنّهار، ورجلٌ آتاه الله مالًا فهو ينفقُه آناءَ الليلِ والنهار**»؛ فجعل الغِنى مع الإنفاق بمنزلةِ القرآن مع القيام به.

قالوا: وقد صرح في حديث أبي كبشة الأنماري[1]: أن صاحب المال إذا عمل في ماله بعلمِه، واتّقى فيه ربَّه، ووصلَ به رحمَه، وأخرج منه حقَّ الله فهو في أعلى المنازل عند الله، وهذا تصريحٌ في تفضيله، وجعل الفقير الصادق إذا نوى أن يعملَ بعمله، وقال ذلك بلسانه ثانيًا، وأنه بنيته وقوله وأجرهما سواء، فإن كلًّا منهما نوى خيرًا وعمل ما يقدرُ عليه، فالغني نواه ونفذه بعمله، والفقير العالم نواه ونفذه بلسانه، فاستويا في الأجرِ من هذه الجِهَةِ، ولا يلزمُ من استوائهما في أصلِ الأجرِ استواؤهما في كيفيته وتفاصيله؛ فإن الأجر على العمل والنيّة له مزية على الأجر على مجرَّد النِّيةِ التي قارنها القولُ، ومن نوى الحجَّ ولم يكن له مالٌ يحُجُّ به وإن أثيب على ذلك، فإن ثوابَ من باشَر أعمالَ الحجِّ مع النيةِ له مزيَةٌ عليه.

يوضح هذا: أن فقراءَ المهاجرين شكوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله ذَهَبَ أهلُ الدّثور بالأجور؛ يصلُّون كما نُصَلِّي، ويصومون كما نَصومُ، ولهم فضولُ أموالٍ يحجّون بها، ويعتمرون، ويجاهدُون، ويتصدّقون، قال: «**أفلا أعلِّمُكم شيئًا تدركون به من سَبَقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضلَ منكم إلا من صَنَع مثل ما صنعتم؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**تسبِّحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين**». فرجع فقراءُ المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخوانُنا أهلُ الأموال بما فعلناه ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد:٢١]، فلو كانوا

(١) الترمذي (٢٣٢٥).

يَلْحقون بهم في مقدار الأجرِ بمجرّد النِّيَّةِ، لقال لهم: انووا أن تفعلوا مثلَ فِعلهم فتنالوا مثل أجرِهم، فلمّا أعاضهم عما فاتهم من ثوابِ الصّدقَةِ والعِتْقِ والحَجِّ والاعتمارِ بما يحصل نظيره بالذِّكر؛ علم أن الأغنياء قد فَضلوهم بالإنفاق، فلمّا شاركوهم في الذِّكر بقيت مزيةُ الإنفاق، فشكوا إلى رسول الله ﷺ أن الامتياز لم يَزل، وأنهم قد ساوونا في الذِّكر كما ساوونا في الصّومِ والصلاة؛ فأخبرهم: أن ذلك فَضْل الله يؤتيه من يشاءُ، فلو كان لهم سبيلٌ إلى مساواتهم من كلِّ وجهٍ بالنِّيةِ والقولِ لَدَلَّهم عليها.

قالوا: وقد جعل الله سبحانه المالَ سببًا لحفظ البَدنِ، وحفظُه سَبَبٌ لحفظِ النفس التي هي مَحَلُّ معرفةِ الله والإيمان به وتصديق رسله ومحبته والإنابة إليه؛ فهو سببُ عمارةِ الدنيا والآخرة، وإنما يُذَمُّ منه ما استخرج من غير وجهه، وَصُرِفَ في غير حقِّه، واستَعْبَدَ صاحبَه ومَلَكَ قلبَه وشَغَلَه عن الله والدارِ الآخرةِ، فَيُذَمُّ منه ما يتوسل به صاحبه إلى المقاصدِ الفاسدة أو شغله عن المقاصِدِ المحمودةِ؛ فالذمُّ للجاعلِ لا للمجعول.

قال النَّبيُّ ﷺ: «**تعس عبدُ الدينار، تعس عبدُ الدرهم**»[1]؛ فَذَمَّ عَبْدَهما دونهما.

قالوا: ومن فوائِدِ المالِ: أنه قوامُ العبادات والطاعاتِ، وبه قام سوق بِرِّ الحجِّ والجهادِ، وبه حصل الإنفاقُ الواجِبُ والمستحبُّ، وبه حصلت قرباتُ العتقِ والوقفِ وبناءِ المساجدِ والقناطِرِ وغيرها، وبه يتوصل إلى النّكاح الذي هو أفضلُ من التخلي لنوافل العبادة، وعليه قام سوقُ المروءة، وبه ظهرت صفةُ الجود والسّخاء، وبه وُقيت الأعراضُ، وبه اكتسب الإخوان والأصدقاء، وبه توصل الأبرارُ إلى الدرجاتِ العلا ومرافقة الذين أنعم الله عليهم؛ فهو مِرقاةٌ يُصْعَدُ بها

---

(١) البخاري (٢٨٨٧).

إلى أعلى غُرَفِ الجنَّةِ، ويُهبط منها إلى أسفل سافلين، وهو مقيمُ مجدِ الماجد؛ كما أن بعض السلف يقول: «لا مَجْدَ إلا بفعالٍ، ولا فعال إلا بمالٍ».

وقد استعاذَ رسولُ الله ﷺ من الفقرِ وقَرَنَهُ بالكفر فقال: «**اللهم إني أعوذُ بك من الكفرِ والفقرِ**»[1]؛ فإن الخيرَ نوعان: خيرُ الآخرةِ والكفرُ مضادُه، وخير الدنيا والفقرُ مضادُه، فالفقرُ سببُ عذاب الدنيا، والكفرُ سببُ عذابِ الآخرة.

ونحن لا ننكرُ أن رسولَ الله ﷺ كان فقيرًا ثم أغناه الله، والله فَتَحَ عليه وَخَوّله ووسَّع عليه، وكان يَدّخِر لأهله قوتَ سنةٍ، ويعطي العطايا التي لم يعْطِها أحدٌ غيره، وكان يعطي عطاءَ من لا يخاف الفقرَ، ومات عن فِدْك والنَّضيرِ وأموالٍ خَصّهُ الله بها، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الحشر:٧].

فنزهه ربُّه سبحانه عن الفقرِ الذي يُسوِّغُ أَخْذَ الصَّدَقَةِ، وعوَّضَه عما نزّهه عنه بأشرفِ المالِ وأَحَلِّه وأفْضَلِه وهو ما أخذه بظِلّ رُمحِه وقائِم سيفه من أعداءِ الله الذين كان مالُ الله بأيديهم ظُلْمًا وعدوانًا.

فكان ﷺ في فقرِهِ أصبرَ خلقِ الله وأشكرَهم، وكذلك في غِنَاه، والله تعالى جعله قدوةً للأغنياءِ والفقراءِ.

وأي غنًى أعظمُ من غنى من عُرضت عليه مفاتيحُ كنوزِ الأرض، وعُرِضَ عليه أن يُجعلَ له الصّفا ذَهبًا، وخُيِّرَ بين أن يكونَ ملكًا نبيًّا وبين أن يكون عبدًا نبيًّا؛ فاختار أن يكون عَبْدًا نبيًّا، ومع هذا فَجُبِيت إليه أموالُ جزيرةِ العربِ واليَمَنِ، فأنفَقَها كلَّها ولم يستأثر منها بشيءٍ، بل تحمّل عيالَ المسلمين وَدَينهم، فقال: «من ترك مالًا فلورثته، ومن ترك كلًّا فإلي وَعَليَّ».

---

(١) النسائي (٥٤٨٥).

قالوا: وما ذكرتم من الزّهدِ في الدنيا والتّقلُّلِ منها؛ فالزُّهدُ فيها لا ينافي الغِنى، بل زُهْدُ الغَنيِّ أكملُ من زُهدِ الفقير؛ فإن الغَنِيَّ زهد عن قدرةٍ، والفقير عن عجز، وبينهما بُعْدٌ بعيدٌ، وقد كان رسول الله ﷺ في حالِ غناه أزهدَ الخلقِ، وكذلك إبراهيمُ الخليلُ كان كثيرَ المالِ وهو أزهدُ الناسِ في الدنيا.

وسرُّ المسألة: أن طريقَ الفَقرِ والتَّقَلُّلِ طريقُ سلامةٍ مع الصبر، وطريقُ الغِنى والسَّعةِ في الغالبِ طريقُ عَطَبٍ، فإن اتقى الله في مالِه، ووصلَ به رحمَه، وأخرج منه حَقَّ الله، وليس مقصورًا على الزكاةِ؛ بل من حَقِّه إشباعُ الجائع، وكسوةُ العاري، وإغاثةُ الملهوفِ، وإعانةُ المحتاج والمضطرِ، فطريقُه طريقُ غنيمة وهي فوق السَّلامَةِ؛ فمثلُ صاحب الفقرِ كمثلِ مريضٍ قد حُبِسَ بمرضِه عن أغراضه، فهو يُثابُ على حُسْنِ صبره على حبسه، وأما الغنيُّ فَخَطَرُهُ عَظيمٌ في جمعه وكَسْبِهِ وصَرْفِهِ، فإذا سَلِمَ كَسْبُه وحَسُن أَخْذُه من وجهه وَصَرَفَه في حقه كان أنفعَ له، فالفقيرُ كالمتعبدِ المنقطع عن الناس، والغنيُّ المنفقُ في وجوه الخير كالمُعين والمُعَلِّم والمجاهد؛ ولهذا جعله النبيُّ ﷺ قرينَ الذي آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها، ويُعَلِّمُها؛ فهو أحدُ المَحْسودَين اللذين لا ثالثَ لهما، والجَهلةُ يغبطون المُنْقَطع المُتَخَلّي المقصور النَّفْعِ على نَفْسِه، ويجعلونَه أولى بالحَسَدِ من الغَنِيِّ المنفِق والعالِمِ المُعَلِّم.

فإن قيل: فأيُّهما أفضلُ من يختارُ الغِنى والتَّصَدُّقَ والإنفاقَ في جوهِ البرِّ؟ أم من يختارُ الفَقْرَ والتَّقَلُّلَ؛ ليبعد عن الفِتنَةِ ويسلم من الآفة، ويرفِّه قلبَه على الاستعداد للآخرةِ فلا يشغلُه بالدنيا؟ **أم من لا يختارُ لا هذا ولا ذاك، بل يختارُ ما اختاره الله فلا يعين باختياره واحدًا من الأمرين؟**

قيل: هذا موضِعٌ اختلف فيه حالُ السلف الصالحِ:

▪ **فمنهم: من اختارَ المالَ للجهادِ به، والإنفاقِ، وصَرْفِهِ في وجوه البرِّ**؛ كعبد الرحمن بن عوف وغيره من مياسير الصحابة، وكان قيسُ بن سعد يقول: «اللهم إنِّي من عبادِك الذين لا يصلِحُهم إلا الغنى».

▪ **ومنهم: من اختارَ الفقْرَ والتَّقَلُّلَ** كأبي ذَرٍّ وجماعةٍ من الصحابة معه، وهؤلاء نظروا إلى آفات الدنيا، وخشوا الفتنة بها، وأولئك نظروا إلى مصالحِ الإنفاق وثمراتِه العاجِلَةِ والآجِلَةِ.

والفرقةُ الثالثةُ لم تختر شيئًا بل كان اختيارُها ما اختاره الله لها.

وكذلك اختيارُ طولِ البَقاء في الدّنيا لإقامة دين الله وعبادتِه:

▪ فطائفةٌ اختارته وتَمَنّتْهُ.

▪ وطائِفَةٌ أَحبَتّ الموتَ ولقاءَ الله، والراحة من الدنيا.

▪ وطائفةٌ ثالثة لم تختر هذا ولا ذاك، بل اختارت ما يختارُه الله لها، وكان اختيارُهم مُعَلقًا بما يُريدُه الله دونَ مرادٍ معين منهم، وهي حال الصديق ﷺ فإنهم قالوا له في مرض موته: «ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآني. قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إني فعال لما أريد».

ومما ينبغي أن يُعْلَمَ: أن كُلَّ خصلةٍ من خصال الفضْل فقد أحلَّ الله رسوله ﷺ في أعلاها، وخَصّه بذروةِ سنامِها، فإذا احتجت بحاله فِرقةٌ من فِرَقِ الأمة التي تَعَرَّفت تلك الخصال وتقاسمتها على فَضْلِها على غيرِها أمكن الفرقةُ الأخرى أن تحتجَّ به على فَضلِها أيضًا.

والمقصودُ بهذا الفصل: أنَّه ليسَ الفقراءُ الصابرون بأحق به ﷺ من الأغنياءِ الشاكرين، وأحقُّ الناس به أعلَمُهم بسُنَّتِه، وأتبعهم لها، وبالله التوفيق.

الباب الخامس والعشرون:

في بيان الأمورِ المضادةِ للصبرِ والمنافيةِ له والقادحةِ فيه

لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله، والقلب عن التَّسَخُّطِ، والجوارح عن اللّطمِ وشقِّ الثياب ونحوها، كان ما يضادُّه واقعًا على هذه الجملة.

فمنه: **الشّكوى إلى المخلوق**، فإذا شكا العبدُ ربَّه إلى مخلوقٍ مثله فقد شكى من يَرْحمه إلى من لا يَرْحَمُه.

وأما إخبارُ المخلوق بالحالِ؛ فإن كان للاستعانةِ بإرشادِه أو معاونتِه والتوصل إلى زوال ضرورة لم يقدح ذلك في الصبر؛ كإخبار المريض للطبيب بشكايَتِه، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحالِه، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فَرَجُه على يديه.

وقد كان النَّبِيُّ ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حالِه ويقول: «**كيف تجدك**»[1]؛ وهذا استخبارٌ منه واستعلامٌ بحاله.

وأمّا الأنينُ فهل يقدح في الصبر؟

والتحقيق: أن الأنين على قسمين: أنينُ شكوى؛ فيكره. وأنينُ استراحةٍ وتفريجٍ، فلا يكره، والله أعلم.

وقال شقيق البلخي: «من شكى من مصيبةٍ نزلت به إلى غيرِ الله لم يجد في قلبه حلاوةً لطاعة الله أبدًا».

---

(١) الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١).

والشكوى نوعان: شكوى بلسانِ القالِ. وشكوى بلسانِ الحالِ ولعلها أعظمها، ولهذا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ من أنعم عليه أن يُظهِرَ نعمةَ الله عليه، وأعظم من ذلك من يشتكي ربه وهو بخيرٍ؛ فهذا أمقَتُ الخَلْقِ عند ربّه.

ومما ينافي الصبر: شقُّ الثيابِ عند المصيبة، ولطمُ الوجهِ، والضربُ بإحدى اليدين على الأخرى، وحلقُ الشعر، والدعاءُ بالويل، ولهذا برئَ النبي ﷺ ممن سلق وحلق وخَرَقَ.

ولا ينافيه البكاء والحزن، قال الله تعالى عن يعقوب: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤]. قال قتادة: «كظيم على الحزنِ، فلم يَقُلْ إلا خيرًا».

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «**ما كان من العَين ومن القَلبِ فمن الله والرّحمة، وما كان من اليَد واللسانِ فمن الشّيطان**»[1].

ومما يقدَحُ في الصبر: إظهارُ المصيبة والتحدث بها، وكتمانها رأسُ الصبر.

ويضاد الصَبْر الهلعُ، وهو: الجزَعُ عند ورود المصيبة، والمَنْعُ عند ورود النّعمةِ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:١٩-٢١].

وفي الحديث: «**شر ما في العبد شُحٌّ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خالعٌ**»[2].

□ ▪ □ ▪ □

(١) المسند (١/ ٢٣٧، ٢٣٨).
(٢) أبو داود (٢٥١١)، والمسند (٢/ ٣٠٢، ٣٢٠).

الباب السادس والعشرون:

في بيانِ دخولِ الصبرِ والشكرِ في صفاتِ الرَّبِّ جَلَّ جلاله، وتسميته بالصبورِ والشكورِ، ولو لم يكن للصبرِ والشكرِ من الفضيلةِ إلاَّ ذلك لكفى به

أما الصبرُ؛ فقد أطلقه عليه أعرفُ الخَلْق به وأعظمهُم تنزيهًا له بصيغة المبالغة؛ ففي الصحيحين[1] عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «**ما أحدٌ أصبرُ على أذىً سَمِعه من الله عزَّ وجلَّ يدعون له ولدًا وهو يعافيهم ويرزقُهم**».

وفي أسمائه الحسنى: الصبور.

وظهور أثر هذا الاسم في العالم مشهود بالعيان كظهور اسمه الحليم. والفرق بين الصبر والحِلم: أن الصبرَ ثمرةُ الحلمِ وموجبه، فعلى قدر حلم العبد يكون صبره، فالحلم في صفات الرب ـ تعالى ـ أوسع من الصبر، ولهذا جاء اسمه الحليم في القرآن في غير موضع، ولسعته يقرنه سبحانه باسم العليم، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥١]، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء:١٢].

وأمَّا صبره سبحانه فمتعلِّقٌ بكفرِ العبادِ، وشركهم، ومسبتهم له سبحانه، وأنواعِ معاصيهم وفجورهم، فلا يزعجه ذلك كله إلى تعجيل العقوبة بل يصبر على كيده، ويمهله، ويستصلحه، ويرفق به، ويحلم عنه، حتى إذا لم يبق فيه موضع للضيعة، ولا يصلح على الإمهال والرفق والحلم، ولا ينيب إلى ربه ويدخل عليه، لا من باب الإحسان والنِعم، ولا من باب البلاء والنقم، أخذه أخذ عزيز مقتدر، بعد غاية الإعذار إليه، وبذل النصيحة له ودعائه إليه من كل باب، وهذا كله من موجباتِ صفةِ حلمِهِ، وهي صفةٌ ذاتيةٌ له لا تزول.

(١) البخاري (٧٣٧٨)، ومسلم (٢٨٠٤).

وأما تسميته سبحانه بالشكور؛ فهو في حديث أبي هريرة[1].

وفي القرآن تسميته شاكرًا، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٧].

وتسميته أيضًا شكورًا، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن:١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان:٢٢].

فجمعَ لهم سبحانه بين الأمرين: أن شكر سعيهم وأثابهم عليه، والله ـ تعالى ـ يشكرُ عبده إذا أحسنَ طاعته، ويغفرُ له إذا تاب إليه؛ فيجمعُ للعبد بين شكره لإحسانِه ومغفرتِه لإساءتِه، إنه غفورٌ شكورٌ.

وأما شكرُ الربِّ ـ تعالى ـ فله شأن آخر، كشأنِ صبرِه، فهو أولى بصفةِ الشكرِ من كلِّ شكورٍ، بل هو الشكورُ على الحقيقةِ؛ فإنه يعطي العبدَ ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليلَ من العملِ والعطاءِ فلا يستقلُّه أن يشكره، ويشكرُ الحسنَةَ بعشرِ أمثالها إلى أضعافٍ مضاعفةٍ، ويشكرُ عبده بقوله بأن يثنى عليه بين ملائكته وفي ملئه الأعلى، ويلقي له الشكرَ بين عباده، ويشكره بفعله، فإذا ترك له شيئًا أعطاه أفضلَ منه، وإذا بذل له شيئًا رده عليه أضعافًا مضاعفةً، وهو الذي وفَّقَه للتَّركِ والبَذْلِ، وشكره على هذا وذاك.

ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفةِ الشُّكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عَطَّلَها، واتصف بضِدِّها، وهذا شأنُ أسمائه الحسنى أحبُّ خلقِه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضُهم إليه من اتصف بأضدادها، ولهذا يُبْغِضُ الكفورَ والظالمَ والجاهلَ والقاسي القلب والبخيلَ والجبانَ

(١) تقدم آنفًا.

والمهينَ واللئيمَ، وهو سبحانه جميلٌ يُحبُّ الجمالَ، عليمٌ يحبُّ العلماءَ، رحيمٌ يحب الراحمينَ، محسنٌ يحب المحسنين، شكورٌ يحبُّ الشاكرين، صبورٌ يحب الصابرين، جوادٌ يحبُّ أهلَ الجودِ، ستِّير يحب أهل السِّتر، قادرٌ يلومُ على العَجْزِ، والمؤمن القويُّ أحبُّ إليه من المؤمنِ الضعيفِ، عَفُوٌّ يحب العفوَ، وترٌ يحبُّ الوِتْرَ، وكل ما يحبه فهو من آثارِ أسمائِه وصفاتِه وموجبِها، وكل ما يبغضه فهو مما يضادُّها وينافيها.

□ ▪ □ ▪ □



خاتمـة

يا مَن عَزَم على السَّفرِ إلى اللهِ والدارِ الآخرةِ، قد رُفِع لك عَلَمٌ فَشَمِّر إليه فقد أمكن التشمير، واجعل سيرك بين مطالعةِ منَّته ومشاهدةِ عيبِ النفسِ والعملِ والتقصيرِ، فما أبقى مشهدُ النِّعمةِ والذَّنْبِ للعارفِ من حسنةٍ يقول: هذه مُنْجِيتي من عذابِ السعيرِ، ما المُعَوَّلُ إلّا على عفوه ومغفرته فكلُّ أحدٍ إليهما فقيرٌ، أَبُوءُ لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فاغفر لي؛ أنا المذنِبُ المسكينُ وأنت الرَّحيم الغفورُ.

ما تُساوي أعمالك لو سلمت مما يبطلها أدنى نعمةٍ من نعمِه عليك وأنت مرتهن بشكرها من حين أرسل بها إليك، فهل رَعْيَتَها بالله حَقَّ رعايتها وهي في تصريفك وَطَوْع يديك؟ فتَعَلَّق بحبلِ الرَّجاءِ وادخل من باب التوبة والعمل الصالح إنه غفورٌ شكورٌ.

◻ **نهج للعبد طريقَ النجاةِ وفتح له أبوابها،** وعَرَّفَه طُرق تحصيل السعادةِ وأعطاه أسبابها، وحذَّره من وبالِ معصيته.

◻ **وأزاحَ عن العبدِ العللَ،** وأمره أن يستعيذَ به من العجزِ والكسلِ، ووعده أن يشكر له القليل من العمل، ويغفر له الكثيرَ من الزَّلَلِ، إنَّ ربَّنا لغفورٌ شكورٌ.

◻ **أعطاه ما يشكر عليه،** ثم يشكره على إحسانِه إلى نفسِه لا على إحسانِه إليه، ووعدَه على إحسانِه لنفسه أن يحسنَ جزاءَه ويقربه لديه، وأن يغفرَ له خطاياه إذا تاب منها ولا يفضحه بين يديه، إن ربنا لغفور شكور.

وثقت بعفوه هفوات المذنبين فوسعتها، وعكفت بكرمه آمال المحسنين فما قطع طمعها، وخرقت السبع الطباق دعوات التائبين والسائلين فسمعها، ووسع

الخلائق عفوه ومغرفته ورزقه، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، إن ربنا لغفور شكور.

□ **يجودُ على عبيده بالنوال قبل السؤال**، ويعطي سائله مؤمله فوق ما تعلقت به منهم الآمال، ويغفر لمن تاب إليه ولو بلغت ذنوبه عدد الأمواج والحصى والتُّراب والرمال، إن ربنا لغفور شكور.

□ **أرحمُ بعبادِه من الوالدةِ بولدِها**، وأفرحُ بتوبةِ التائبِ من الفاقدِ لراحلتِه التي عليها طعامُه وشرابُه في الأرضِ المهلكةِ إذا وجدَها، وأشكرُ للقليلِ من جميعِ خلقه؛ فمن تقرَّبَ إليه بمثقالِ ذرَّةٍ من الخيرِ شكرَها وحمدها، إن ربنا لغفورٌ شكورٌ.

تَعَرَّفَ إلى عبادِه بأسمائِه وأوصافِه، وتحبّبَ إليهم بحلمِه وآلائِه، ولم تمنعه معاصيهم بأن جادَ عليهم بآلائِه، ووعدَ من تابَ إليه وأحسنَ طاعته بمغفرةِ ذنوبِه يومَ لقائِه، إن ربنا لغفورٌ شكورٌ.

السعادةُ كلُّها في طاعتِه، والأرباحُ كلُّها في معاملته، والمحنُ والبلايا كلُّها في معصيتِه ومخالفته، فليس للعبدِ أنفعُ من شكرِه وتوبته، إن ربنا لغفورٌ شكورٌ.

□ **أفاضَ على خلقِهِ النعمةَ**، وكتبَ على نفسِه الرحمةَ، وضمن الكتابَ الذي كتبه: «**إن رحمته تغلب غضبه**»[1]، إن ربنا لغفورٌ شكورٌ.

□ يُطاعُ فَيشكرُ، وطاعتُه مِنْ توفيقِه وفضلِه، ويُعصى فَيحلم، ومعصيةُ العبدِ من ظلمِه وجهلِه، ويتوب إليه فاعل القبيحِ فيغفر له، حتى كأنه لم يكن قَطُّ من أهلِه، إن ربنا لغفورٌ شكورٌ.

---

(١) البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

□ الحسنةُ عنده بعشرِ أمثالها أو يضاعفها بلا عددٍ ولا حسبان، والسيئةُ عنده بواحدةٍ ومصيرها إلى العفوِ والغفرانِ، وبابُ التوبةِ مفتوحٌ لديه منذ خلقَ السمواتِ والأرض إلى آخرِ الزمانِ، إن ربنا لغفورٌ شكورٌ.

□ بابُه الكريمِ مناخُ الآمالِ ومحطُّ الأوزارِ، وسماءُ عطاياه لا تقلعُ عن الغيثِ بل هي مِدْرَارٌ، ويمينُه ملأى لا تغيضها نفقةٌ سَحَّاء الليلِ والنهارِ، إن ربنا لغفورٌ شكورٌ.

□ **لا يُلَقَّى وصاياه إلا الصابرون**، ولا يفوز بعطاياه إلا الشاكرون، ولا يهلك عليه إلا الهالكون، ولا يشقى بعذابه إلا المتمردون، إن ربنا لغفورٌ شكورٌ.

فإيَّاك أيها المتمرّدُ أن يأخذك على غِرَّةٍ فإنه غيورٌ، وإذا أقمت على معصيتِه وهو يمدك بنعمته فاحذر فإنه لم يهملك لكنه صبورٌ، وبشراك أيها التائبُ بمغفرتِه ورحمتِه إنه غفورٌ شكورٌ.

مَنْ عَلِمَ أَنَّ الرَّبَّ شكورٌ تَنوَّع في معاملته، ومَنْ عَلِمَ أنه واسعُ المغفرةِ تَعلّق بأذيالِ مغفرتِه، ومَنْ علم أن رحمته سبقت غضبه لم ييأس من رحمتِه، إن ربنا لغفورٌ شكورٌ.

مَنْ تَعلَّق بصفةٍ من صفاتِه أخذته بيده حتى تدخله عليه، ومَنْ سارَ إليه بأسمائِه الحسنى وصلَ إليه، ومَنْ أَحَبَّه أحبَّ أسماءه وصفاته، وكانت آثرَ شيءٍ لديه.

حياةُ القلوبِ في معرفته ومحبته، وكمالُ الجوارحِ في التقرُّبِ إليه بطاعتِه، والقيامِ بخدمتِه، والألسنة بذكره والثناء عليه بأوصافِ مدحته. فأهل شكره أهل زيادته، وأهل ذكره أهل مجالسته، وأهل طاعته أهل كرامته، وأهل معصيته لا يُقَنِطهُم

من رحمته، إن تابوا فهو حبيبهم، وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم، يبتليهم بأنواع المصائبِ، ليكفر عنهم الخطايا ويطهرهم من المعائبِ، إنه غفورٌ شكورٌ.

والحمدُ لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما يُحبُّ ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله، حمدًا يملأ السمواتِ والأرضِ وما بينهما، وما شاءَ ربنا من شيءٍ بعد، بمجامعِ حمده كلها ما علمنا منها وما لم نعلم، على نعمه كلها ما علمنا منها وما لم نعلم، عدد ما حمد الحامدون، وغفل عن ذِكْرِه الغافلون، وعدد ما جرى به قلمُه، وأحصاه كتابُه، وأحاط به علمُه.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمدٍ وآله وصحبِه أجمعين؛ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين. ورضي الله عن التابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين. ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، وحسبُنا الله ونعم الوكيلُ.

□ ▪ □ ▪ □



الفهرس

الموضوع	الصفحة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



صدر للمؤلف

- هدي محمد ﷺ في عباداته ومعاملاته وأخلاقه (١٠ لغات)
- المخالفات العقدية المتعلقة بالحج والعمرة

مكتبة الأسرة 1

..وتحتوي على 6 كتب:

1. مختصر رياض الصالحين
2. هدي محمد ﷺ
3. مختصر حادي الأرواح
4. مختصر عدة الصابرين
5. مختصر الداء والدواء
6. مختصر الفوائد

مكتبة الأسرة 2

..وتحتوي على 6 كتب:

1. مختصر الفصول في سيرة الرسول ﷺ
2. مختصر الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب
3. مختصر جامع العلوم والحكم
4. مختصر صيد الخاطر
5. مختصر لطائف المعارف
6. مختصر الكبائر

مكتبة أسعد مجتمعك

..وتحتوي على 6 كتب:

1. تعظيم الله جل جلاله
2. محمد رسول الله ﷺ
3. ٥٠ وسيلة لتسعد نفسك ومجتمعك
4. ٢٠ مهارة لطلاب المتوسط والثانوي
5. الدليل العملي للحوار البناء
6. مختصر طريق الهجرتين

مطابع الفسطاط الحديثة ت: 00966505229353